أهداف سويف

زينة الحياة

قصص

دار الشروق

أهداف سويف
زينة الحياة
قصص
دار الشروق

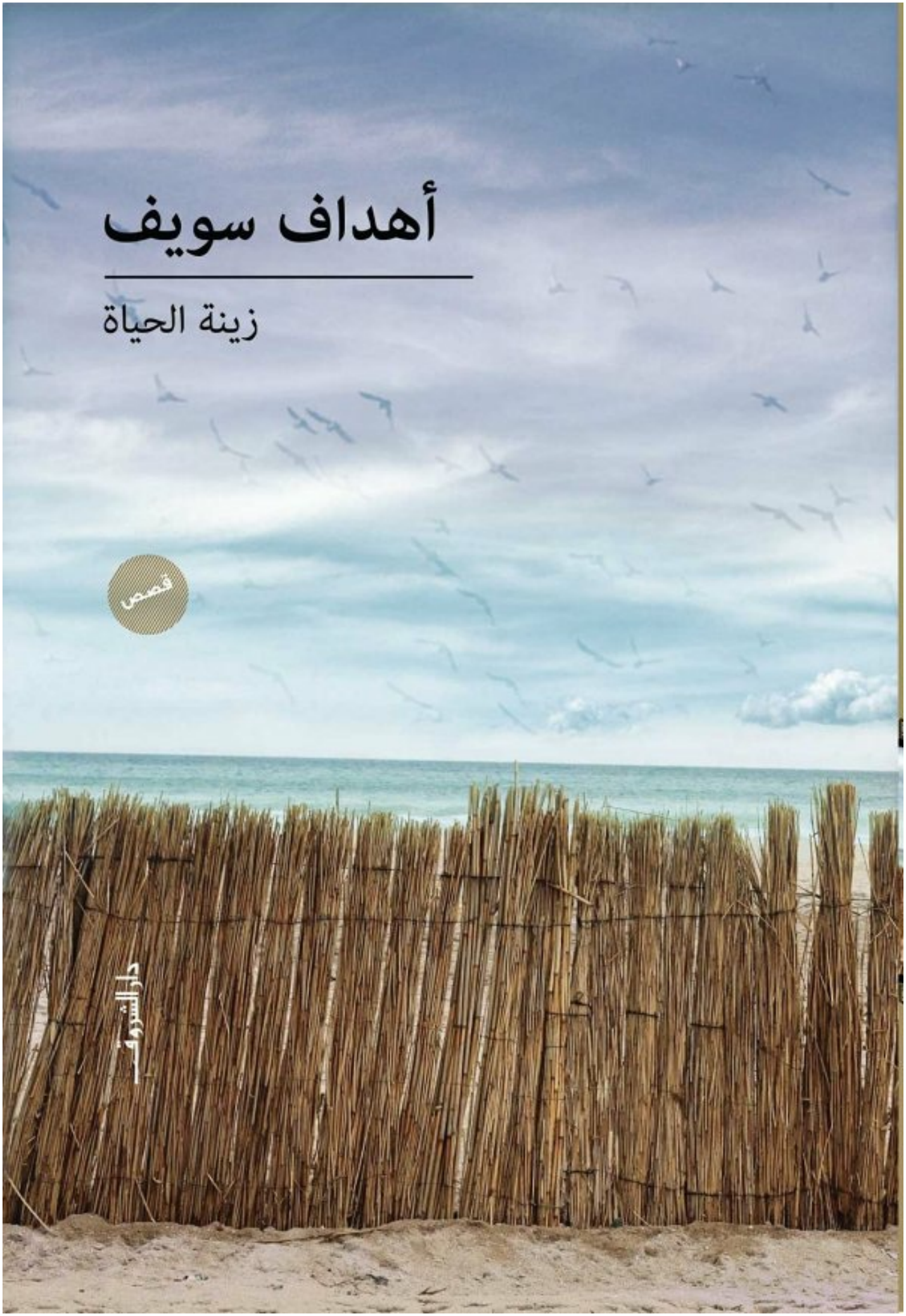

أهداف سـويف

زينـة الحيـاة

وقصص أخرى

دار الشروق

The stories in this collection were published as

and ١٩٨٣ ,Aisha, Jonathan Cape, London

١٩٩٦ ,Sandpiper, Bloomsbury, London

by Ahdaf Soueif

الطبعة العربية الأولى

دار الهلال، القاهرة ١٩٩٦.

طبعة دار الشروق الأولى ين-اير ٢٠١٠

الطبعة الثانية نوفمبر ٢٠١٠

© دار الشروق

٨ ش-ارع سيبوي-ه المص-ري

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

www.shorouk.com

رق-م الإيداع ٤٢٠٢/٢٠١١

ISBN 978-977-09-2981-0

إهداء

إلى فاطمة موسى ومصطفى سويف

زينة الحياة

أقف في نافذتي أرقب الطريق المدق من الحجر الأبيض، يحدوه جدار أبيض منخفض، ولكنه بعد، يحجب عني رؤية ما وراءه في وقفتي هنا. رمال بيضاء تتحرك بطيئا على الطريق الأبيض. كنت أتبع بنظري نسقا منتظما في حركتها، أشكالا تتغير وتنمو بين حمرة الغروب في يوم وزرقة الفجر الباهتة في اليوم التالي. وكنت، إذ أقطع الطريق، أسير على أطراف أصابعي، لا يكاد باطن قدمي يلمس الفراغات المستوية، التي تومض بيضاء بين تراكمات الرمل، وقد خُيل إليَّ أن أشكال الرمال على الحجر يجب أن تُترك للطبيعة، وحدها، فلا أريد أن تغير ذرة رمل واحدة مسارها بسببي. ماذا يفيدني أن أحاول تفسير شكل كانت لي يد في تنسيقه؟ الطريق أمامي، وبعده يمتد الشاطئ، وبعد ذلك البحر.

أيامي

في السنوات الأولى كنت أجلس على الحافة حيث تدفقت أمواج البحر وتدفقت، تنساب حروفها البيضاء المزبدة تقضم الرمل، برفق، ثم تنحسر، مخلفة أهلة واسعة من الرمال المبتلة، أعمق لونا، وقد انقلب اصفرارها إلى البني الفاتح.

كنت أعمد إلى الجلوس في حدود واحد من تلك الأقواس، في المنتصف بالضبط، أجلس وكأني في مركب، وأنتظر. وقد تلامس الموجة قدمي، وقد تحيط بي متدفقة وتغطيني حتى خصري، ثم تنحسر، ساحبة طبقة من الرمال من تحتي، وأنا جالسة أرقب الماء يختفي تدريجيا من حفرتين يرتاح فيهما كعباي. وخفيفا كظل سحابة عابرة، ينزلق هلال الرمل الذي أعتليه في إثر الموجة التي كونته، فلا يلبث أن تجتاحه وتغمره الوثبة التالية من البياض المزبد.

أسند ظهري إلى جدار الغرفة وأعد السنين: اثنتا عشرة سنة مضت منذ التقيت به، ثماني سنوات منذ تزوجته، ومنذ ست سنوات أنجبت ابنته.

في كل صيف طوال ثماني سنوات نحضر هنا، إلى بيت المصيف على الساحل غرب الإسكندرية. في الصيف الأول لم يكن هناك مجال للتأمل: كان همي منصرفا إلى حب زوجي هنا ـ في مكان جديد عليَّ. عشقته وهو يخطو صوب مظلتي نافضا الماء عن شعره الأسود، وقدماه تغوصان في الرمل الناعم المضياف، عشقته وهو يحمل ابن أخيه على كتفه وينزل إلى البحر، يلقي به في اللجة ليلتقطه من جديد .. عملاق يخوض عباب الموج. أحببته وهو يلعب الطاولة مع أبيه في العشية، وقرقعة الفيش وخشخشة الزهر تتعالى في أرجاء الفناء، وأنا أجلس مع أخته إلى طاولة السفرة تعلمني كيف أخط أحرف لغتهم الدائرية الزخرفية. أحببت هذا ال-«هو» الجديد ـ الذي سبق الإيحاء به ولكنه لم يتكشف أبدا ونحن نعيش في بلادي الشمالية ـ وقد عاد إلى قلب بلاده بعد غياب

طويل، وأتى بي معه. كنا، ساعة الغروب، نسير على امتداد حافة المياه، نركل رذاذ الماء المتطاير، وقبعتي الشمسية مرخاة على ظهري، ويدي، التي أصبحت برونزية، في يده السمراء، ومن المؤكد أن تعبيرات وجهي كانت تعكس تعبيرات وجهه: زوجان شابان يتقدان عافية وحبا، يصلحان لإعلانات شركات التأمين على الحياة أو شركات السياحة تدعوك إلى إجازة قصيرة في بلاد مشمسة.

صيفي الثاني هنا كان الصيف السادس في عمر حبنا، والأخير في عمر سعادتنا. كنت حاملا في طفلتي وأعشق أباها. أجلس على الشاطئ وأطلق العنان لأفكاري، أذكر حياتنا في بلدي قبل أن نتزوج: أربع سنوات فى الشقة الصغيرة التي أضيفت كيفما اتفق على سطح بيت قديم، في ساحة من الطراز الجورجي. يلقاني في موقف الباص عند عودتي من العمل. في أيام الآحاد ـ إذا لم تمطر ـ نجلس في الحديقة حاملين جرائدنا. سهراتنا المتأخرة في صالات السينما. فكرت في هذه الأشياء وافتقدتها، ولكن دونما إحساس عارم بالفقد. وكأنها باقية ماثلة، تنتظر أن نستدعيها ونحياها من جديد، متى شئنا.

كنت أمد بصري إلى البحر. وأدرك اليوم أنني كنت أحاول أن أتبين الروابط بين الأشياء. فكرت مليا في الماء والرمل وأنا جالسة أرقبهما يلتقيان ويتغازلان ويتلامسان، وأحاول أن أتمثل أنني على الحافة، حافة إفريقيا ذاتها، وأن اتساع البحر المقابل لا يقارن البتة بما يقوم ورائي. عجزت بصيرتي عن إدراك عالم ليس حاضرا أمام عيني، رغم أنني توغلت في القارة، وعاينت بنفسي المساحات الشاسعة من الأخضر المغبراللانهائي، والجبال، والسماء الواسعة. لكنني لم أكن أرى إلا الشاطئ والأمواج والزرقة، وعبر ذلك كله، طفلتي.

كنت أجلس ويدي على بطني ، أنتظر حركتها: الانفجارات المتناهية الصغر، والرفرفات التي تدلني على مكان رقودها وعلى مزاجها، وتدريجيا أخذنا نتحاور، كانت تكور جسدها وتكمن بصلابة في إحدى زوايا جسدي حتى أنكفئ في وضعي غير المريح أحثها وأنخسها لتعود إلى موقع ألطف. كنت أدلك زاوية ما من بطني بتؤدة، وإذا بخبطة خفيفة تسري مباشرة نحو يدي. أنقر أنا، وتخبط هي من جديد. كنت في التاسعة والعشرين. انتظر بدني سبعة عشر عاما لكي يعلق بالحمل، وها هما قلبي وعقلي يجاريانه ـ الطبيعة فعلت فعلها على نحو مثير للإعجاب، فرغبتي في الطفلة نبعت من عشقي لأبيها ـ وكم كنت غارقة في حبه ذلك الصيف. جسدي لا يشبع من الأب، وطفلته آمنة في داخلي.

من موقفي هنا لا أرى سوى البياض الجاف الصلب. الوهج الأبيض، والجدار الأبيض، والطريق الأبيض يضيق في البعيد.

كان عليَّ أن أغادر. لم تعد الفكرة تلسعني، أضحت معتادة رتيبة. كان عليَّ أن أغادر في فورة ذلك الغضب الحائر المجروح حين أحسست للمرة الأولى أنه ينسحب بعيدا عني ... كان يجب أن أذهب. كان عليَّ أن أستدير، وأحمل طفلتي، وأغادر ـ أستدير ـ

الحجرة تسبح في ظل خفيف، شيش النافذة مغلق يحجب الشمس الساطعة. يطلقون على المصراع الخشبي اسم «الشيش»، يقولون إنها كلمة فارسية تعني « زجاج» الشيء الملاصق لشيء آخر يتسمى باسمه. تراودني هذه الفكرة مرارا، وأشعر أنها ستقودني إلى شيء ما وسأخلص إلى نتيجة منها، ولكني لم أفعل بعد.

أمرُّ بإصبعي على فتحة من فتحات الشيش، هنا وفي المدينة تقوم أم صابر، مربية زوجي، بكل أعمال المنزل. في البدء حاولت أن أساعدها على الأقل، ولكنها كانت تهرع نحوي وتسحب منفضة الغبار أو المكنسة الكهربائية من يدي قائلة: عيب، عيب. أمال أنا باعمل إيه؟ خلي إيديكي حلوة وناعمة. روحي استريحي أو روحي النادي. ما لك ومال الحاجات دي؟ كان زوجي يُترجم ذلك كله، ثم يقول لها كلاما فهمت فيما بعد أنه يطمئنها أنني قريبا سأعتاد على أسلوب حياتهم. وكنت إذا خططت وجبة طعام لا تفلح، و أم صابر تطبخ أفضل ما يتوفر في السوق ذلك يوم، وإذا نزلت إلى السوق ضاعف الباعة أسعارهم. وأنا الآن أقوم بتنسيق الزهور وتمليس الثنيات في الستائر، وأتصدر المائدة في الولائم التي نقيمها.

سريري مرتب. فراشي العريض الذي تلقي لوسي بنفسها فيه في منتصف كل ليلة، حين تتسلل نصف نائمة تحت الناموسية، تلتصق بي، فأحضنها بذراعي إلى أن تدفعه بعيدا عنها. تستخدمني أثناء نومها، فصدري وسادتها حينا ، وفخذي مسند قدمها. أما أنا فأرقد راضية، سعيدة باستخدامها لي. أمسك قدمها بيدي، وأقبلها، وأفكر في المستقبل القريب عندما يصبح من غير المقبول أن أقبل القدم البضة.

ذات مرة، منذ سنوات عديدة، وقفت أنظر إلى امرأة باكستانية نائمة على أريكة من الجلد الأسود في صالة ترانزيت في أحد المطارات. كان ثوبها وبنطالها من حرير أصفر زاهي، والثوب موشح بأزهار يانعة من البنفسجي والأخضر. الأساور الذهبية تغطي ذراعيها، أقراط من ذهب في أذنيها وفي منخارها الأيسر، وعقد ذهبي يطوق جيدها. طفلها الصغير ملتصق بجسدها، إحدى قدميه محشورة بين ركبتيها، وأنفها مدسوس في شعره. كان أثمن ما تملكه في الدنيا معها على تلك الأريكة كاملا غير منقوص، ولذا استسلمت إلى نوم عميق. هذه الصورة خزنتها له في ذاكرتي.

رتبت سريري هذا الصباح. بسطت ذراعي بعيدا ولملمت الناموسية الناعمة المنتفخة. طويتها على شكل لفة سميكة، وعقدت طرفها ليتدلى بأناقة في الهواء فوق الفراش.

قبل تسع سنوات، حين جلست تحت ناموسية للمرة الأولى كتبت: «الآن أعرف ما تحسه المرأة الأوربية في المستعمرات» كان ذلك في «كانو»، في قلب القارة التي أجلس على حافتها الآن. كانت ثلاث سنوات قد مرت على بداية حبنا، وكان تباعدنا آنذاك مجرد تنويع لحضورنا معا. كنا إذا افترقنا ظل افتقاد كل للآخر ينهش قلبينا، ونقول إن هذا يؤكد توحدنا الحقيقي الجوهري. افترقنا

في مطار هيثرو على أن نلتقي بعد أسبوعين في القاهرة لأقابل أهله للمرة الأولى.

فكرت في كتابة قصة عن هذين الأسبوعين، عن رحلتي الأولى إلى إفريقيا، عن محمد السنوسي وهو يحدثني بأدب جم عن المكانة الأدنى للنساء. كان مهذبا لأنني امرأة أجنبية، أوروبية، جئت في مهمة عمل، فيمكن أن أعامل كـ«رجل فخري» فكرت في كتابة قصة عن الطريق الطويل المستقيم في السفر إلى «مايدوغوري»، والتوقف عند استراحات من الأكواخ لمضغ اللحم الذي كنت كثيرا ما أبتلعه صحيحا. والسنوسي يحدثني عن اللحم في أوروبا وكيف يذوب في الفم مثل الأرز باللبن فلا قوام له. أكتب قصة الأسد الذي لمحته بين الأعشاب الطويلة فطلبت من السائق أن يتوقف، وقفزت من السيارة، وصوبت آلة التصوير والتقطت صورة له وهو رابض. وحين عدت إلى السيارة كان السائق يستجمع قواه بعد أن دب الرعب في أوصاله، وأكد لي أن الأسد كان يستعد للانقضاض عليَّ. لا زلت أحتفظ بالصورة: لقطة قريبة لأسد رابض وسط أعشاب طويلة... أتطلع إلى الصورة ولا أستطيع أن أصدق ما كان يمكن أن يحدث.

ولم أكتب القصة، رغم احتفاظي بما دونته من ملاحظات. هنا، في هذه المحفظة الجلدية التي أستخرجها من درج في خزانتي. قصتي الإفريقية. رويتها له بدل كتابتها، وكنا نجلس إلى مائدة مضاءة بالشموع في مطعم في القاهرة، فقبَّل يدي وقال: «أنا مجنون بك» كان النيل يتدفق أسفل النوافذ العالية وكانت «إلى الأبد» على شفاهنا، في أعيننا .... تزوجته، وكنت سعيدة.

أتصفح ما دونته من ملاحظات. كل واحدة تنطوي على تعليق، وعلى وصف هو المقصود به. أفكاري جميعها كانت تدور حوله. أما هو فكتب يقول إنه في المطار، عاد ليبحث عني بعد أن مضيت، ليضمني ويخبرني بما يشعر به من وحشة. ولم يصدق أنني لست معه لتهدئة مشاعره. وكتب يصف نبرة صوتي على الهاتف، والثنية التي في أعلى ذراعي، وقال إنه يعشق تقبيلها.

ماذا يمكن أن أكتب؟ أجلس بمذكراتي إلى المكتب وأنتظر لوسي. المفروض أني نائمة. هذا ما يعتقدون، هذا ما نتظاهر به: أني أنام حتى تمضي ساعات الحر الشديد في منتصف النهار. ولوسي هناك في الخارج، على الشاطئ وقرب حمام السباحة ولا تحتاجني. معها أبوها، وعمها وعمتاها، وأبناؤهم الخمسة .. وفرة من رفقاء اللعب والحماه. وأم صابر تجلس هناك صابرة يقظة في جلابيتها وطرحتها السوداء، وبجانبها الكراسي محملة بالمناشف، وزيوت الوقاية من الشمس، والقبعات العريضة، والشطائر، والمشروبات المثلجة المعبأة في برادات الترموس.

أتطلع وأراقب وأنتظر لوسي.

في سوق «كادونا» في نيجيريا كانت الذبائح المرقشة الحمراء مصفوفة على منصات خشبية تظللها مظلات رمادية من البلاستيك ـ في البداية رأيت اللحم، الذباب يتدافع ويحط عليه، ثم رأيت الجوارح فوق ألواح البلاستيك الرمادية. كانت تقف على الحرف كما

تفعل العصافير الصغيرة في ساحة سوق إنجليزي، ولكنها كانت ثقيلة وساكنة وصامتة. كانت تربض بهدوء بارد، لا يطرف لها جفن، والشمس الحارقة تلهب رؤوسها الصلعاء. اجتاحني خوف تبين لي في لحظتها أنه في غير محله، وأن الجميع يعرفون بوجود هذه الطيور ويواصلون عملهم كالمعتاد، وأن تواجد الجوارح مشهد مألوف في سوق الجزارة في «كادونا»

حرارة الشمس تنفذ في مسام المنزل. أفتح باب غرفتي وأخطو خارجة إلى الصالة الصامتة. في الحمام أقف داخل حوض الدوش وأفتح الصنبور ليتطاير الماء البارد فوق قدمي. أحشر ذيل تنورتي بين ساقي وأنحني لأضع يدي ورسغي تحت الماء. أضغط بكفي المبللة بالماء البارد على وجهي وأتخيل صورة سقوف أردوازية رمادية مبللة بالمطر. أسترجع صور الأشجار. أشجار تحدث حفيفا في حركة الرياح، ثم تسقط أوراقها رشات عذبة من قطرات الماء بعد أن يتوقف المطر.

أسير بخطى خافتة على قدمين مبللتين تجفان عند وصولي إلى المطبخ في نهاية الممر الطويل. أفتح الثلاجة وأرى قطع الضأن متبلة في صنية معدنية واسعة؛ استعدادا لشواء الليلة. جبل من العنب الأصفر يرشح في مصفاة. أتناول عنقودا وأضعه في طبق صغير أبيض. أم صابر تغسل جميع أنواع الفواكه والخضار مستخدمة محلول البرمنغنات الأحمر. وقاية لي أنا، فإن لوسي لا تكف عن قضم الخيار والجزر من سلة الخضر مباشرة. ولكنها ولدت هنا، وهي تنتمي لهم الآن. لو أنني أخذتها وذهبت حين كانت في شهرها الثامن لانتمت إليَّ. أسكب الماء المعدني البارد في كوب طويل وأغلق الثلاجة.

أخطو عائدة عبر الممر، مارة بغرفة أم صابر، بغرفته هو، وبغرفة لوسي. وحين أدلف إلى غرفتي أقف أمام النافذة من جديد، وأتطلع من شقوق الشيش إلى البياض الذي يبدو الآن وكأنه فقد حدة إشعاعه. لو انتقلت إلى النافذة الواقعة في الجدار المقابل، لرأيت العشب الأخضر تحيطه أجنحة البيت الثلاثة، ورشاش الماء يدور في وسط الحديقة، يدور بلا توقف.

أدير المروحة فيهب الهواء على شعري ويلف على وجهي ويبعثر أوراقي. أركع على الأرض وأجمعها. الورقة الأولى: «نينجي يجلس إلى مكتبه برصانة، وأسنانه الكبيرة مصبوغة بلون الكولا. قرب يده اليمنى جرس دراجة يقرعه كلما أراد استدعاء الساعي» مذكرة أخرى: «يجب أن يصف عنوان القصة الأشياء الثلاثة التي نتوقف بسببها على الطريق: البول، والبنزين، وباب الصلاة» تلك كانت أياما خالية، ولم تكن النكات التي أرويها مريرة.

أستلقي على السرير. هذه الوسائد الأربعة من إضافاتي، فهم هنا يستخدمون وسادة واحدة طويلة وعليها وسادتان صغيرتان. بياضات السرير تأتي في أطقم، وعلى فراشي دائما وسادتان فى غلافين بسيطين، ووسادتان مطرزتان بما يتلاءم مع بقية الطقم من الملاءات. وفي جانب من الشيفونيرة أحتفظ بأكياس الوسائد الطويلة المطرزة. وحين أخرجها وأتأملها، أجد زهورها يانعة وزاهية وجديدة.

أرفع عنقود العنب فوق وجهي وأنا مستلقية على الفراش وأقضم حبة منه كما يفعل الرومان في الأفلام. ليتني ألهو ، ليتني ألهو من جديد. لكن لوسي هي رفيقة لعبي الوحيدة الآن، وهي تلهو مع أبناء عمها وعماتها في حوض السباحة.

منذ بضعة أسابيع، وكنا في القاهرة، تطلعت لوسي إلى السماء وقالت:

«أستطيع رؤية المكان الذي سنقيم فيه»

«أين؟» سألتها، والسيارة تقطع شارع الجبلاية.

«في الجنة»

«الجنة؟ وكيف ترين شكلها؟»

«إنها دائرة يا ماما، ولها مدخنة. وسيكون الجو فيها شتاء دائما»

مددت يدي وربت على ركبتها قائلة: « شكرا لك يا حبيبتي»

نعم، يضنيني الحنين. ولكن ليس إلى الوطن وحده. أحن لزمن، لزمن مضى ولن أعيشه من جديد، أبدا. أشتاق لعاشق كان لي، ولن يكون لي من جديد ...أبدا.

راقبته وهو يختفي. لم يكن بالضبط يختفي، بل يخفت، يرتد بعيدا. لم يكن راغبا في الذهاب. ولم يذهب بيسر. طلب أن أمسك به، ولكنه لم يبين لي كيف. مثل حبنا كجنية الحكايات الطيبة، جردت في لحظة من إيماننا بسحرها، تنقلب إلى امرأة عجوز حزينة، وعصاها السحرية مجرد عصا، لا فائدة ترجى منها. هكذا ... كنت أرى ما يحدث، أرى السدود تتشكل أمامي. خصالي الأجنبية التي كانت تسحره في البداية أصبحت تثير ضيقه: عجزي عن تذكر الأسماء، عن متابعة تفصيلات السياسة، وصراعي مع لغته، وحاجتي إلى الوقاية من الشمس والبعوض والسلطة الخضراء وماء الشرب. لقد عاد إلى وطنه، وكان في حاجة إلى من يتآلف معها في بيته. ربما استغرق الأمر سنة، تلك المعركة التي رفضت أن أدخلها ولعل لوسي الرضيعة كانت فيها حليفي. انشطر قلبه إلى اثنين، أما قلبي فقد انكسر ... وكفى.

لم أعد أرى فيه حبيبي الآن. وبين حين وآخر، إذ يعدو على الشاطئ حاملا لوسي، أو ينحني ليتفحص كوعها المجلوط، وأحيانا إذ يلعب مع الأطفال على الرمال، أو يجلس في مواجهتي إلى المائدة الطويلة في حفلات العشاء ... أرى رجلا قد أقع في حبه ثانية، فأشيح بوجهي.

كذلك رويت له حكاية أول سراب رأيته على الطريق الطويل المتجه إلى «مايدوغوري» رأيت السراب ثانية على الطريق الصحراوي إلى الإسكندرية في أول صيف لي هنا، فهتفت متشكية:

«يصعب عليَّ أن أصدق أن لا ماء هناك وأنا أراه بهذا الوضوح»

«تعتقدين فقط أن ما ترينه ماء»

«أليس الأمر سيان؟ عقلي يعلمني بوجود ماء هناك، ألا يكفي هذا؟»

قال وهو يهز كتفيه: «نعم، إذا اكتفيت بالجلوس في السيارة ورؤية السراب» وأردف: «ولكن إذا أردت أن تقصدي الماء وتغمسي يديك فيه وتشربي فالأمر سيختلف، أليس كذلك؟» ونظر إليَّ بطرف عينه، وابتسم.

بعد قليل سأستمع إلى صوت لوسي عاليا واضحا، تثرثر مع والدها، وهي تسير، يدها في يده، على الطريق المؤدي إلى الباب الخلفي. ثم تأتي خطوة أم صابر الثقيلة. سأخرج للقائهما مبتسمة، فيسلمني لوسي مبللة بالماء والرمل، ويسألني إن كنت بخير، ونظرة قلق خفيف تعلو وجهه، وقد يربت على كتفي. وأمضي بلوسي إلى حمامي، ويدخل هو إلى حمامه. فيما بعد، يعود باقي أفراد العائلة واحدا واحدا، ويستحمون، ويبدلون ثيابهم، ثم يجلس الجميع إلى مائدة الشواء. ولسوف يأكلون ويشربون ويتحدثون في السياسة ويتبادلون النكات ذات المغزى السياسي الساخر اليائس. ولسوف يضحكون. لعلهم يتوقعون أن أهتم بالتطريز وأبدأ في إعداد لوحات «الأوبيسون» التي يتخيل الجميع، في الوقت الراهن، أنها ستكون ضرورية لجهاز لوسي.

البارحة، حين ألبستها ثيابها بعد الحمام، تفحصت صورتها في مرآتي بعناية، وطلبت أن أعقد لها ضفيرة فرنسية. جلست خلفها قرب منضدة الزينة، وأخذت أجفف شعرها الأسود بالسيشوار، وأمشطه وأضفره ـ بعد ميلاد لوسي غطت أم صابر جميع المرايا في البيت، وشرحت لي شقيقته: يقولون إن الوليد الذي ينظر في المرآة إنما ينظر إلى قبره . ضحكنا، ولكننا لم نرفع الأغطية عن المرايا حتى أتمت لوسي سنتها الأولى.

تابعت في المرآة وجه لوسي الجاد. أنا رأيت قبري ذات مرة، أو خيل إليَّ ذلك، وهذا فصل من قصتي الإفريقية. الطائرة القادمة من نيجيريا حلقت فوق مطار القاهرة. ثلاث مرات سمعت صوت عجلات النزول تنفتح، وثلاث مرات سمعتها تنغلق. كان يجلس بقربي رجل أعمال من فنلندة، وعندما سمعنا الإعلان عن تغيير مسار الطائرة إلى الأقصر هز كل منهما رأسه وطلب مشروبا ثانيا. وعند الفجر، فوق مطار الأقصر، أعلمونا بوجود عطل في آليات النزول، وأن الطيار سيحاول القيام بهبوط اضطراري. وقلت في نفسي: هذا هو السبب في المجيء بنا إلى الأقصر، لكي نحترق في ستر ولا نعطل الحركة في مطار القاهرة. طلب منا أن نربط الأحزمة

وأن نخلع الساعات والأحذية ، وأن نضع الوسائد الموجودة خلف المقاعد على حجرنا، وننحني عليها وأذرعتنا معقودة خلف رؤوسنا. علَّقت حقيبة يدي، بما تحتويه من جواز سفر وتذاكر ونقود، في عنقي وكتفي، قبل تنفيذ تلك التعليمات. تصافح جاراي الفنلنديان بوقار، وخيم على الطائرة صمت مطبق ونحن ننحدر من السماء. وحين ارتطمنا بأرض المطار تعالى صرير معدني رهيب ومديد. وفي تلك اللحظة بدا رأسي، بل وجماع نفسي وكياني بأسره، على حافة إشعاع فارغ خاو، ولكنه جلي بين. ثم تملكتني أفكار ثلاثة: أولا هو، اسمه يلح عليَّ المرة تلو المرة. ثانيا الأطفال الذين لن أنجبهم. وثالثا أن النسق قد اكتمل: هذا ما آلت إليه حياتي.

نجونا! فأضحت تلك الفكرة الأولى: اسمه، اسمه، اسمه، تعويذة، ألم يكن هو الذي تراءى لي في أحلك لحظات الشدة وكأن ما عداه مُحي تماما من حياتي؟ حياتي. هذه عادت تنبسط أمامي. تومض بالاحتمالات، مقدر لها أن تندمج في حياته.

انتهيت من الضفيرة الفرنسية، واختارت لوسي مشبكا أزرق اللون لعقد الذيل. دلكت وجهها بقليل من الكريم الملطف قبل أن أدعها تذهب. كانت بشرتها مسمرة باستثناء ما خلف أذنيها، حيث يبهت اللون إلى لون الذرة الفاتح يشع بزغب ذهبي. قبلت رقبتها وأنا أهمس: «لوسي، لوتشية، لمبة»، وأطلقت سراحها. لوسي كنزي ... وفخي.

والآن إذ أسير صوب البحر، نحو حافة هذه القارة التي أعيش فيها، التي كدت أموت فيها، وحيث أنتظر أن تكبر ابنتي، وتبتعد عني تدريجيا، أرى أشياء مختلفة عما رأيت في ذلك الصيف منذ سنوات ستة. الرمال تبتلع فقاعات الزبد، لتغرق عميقا، عميقا، وتلحق بالبحر في جوف الأرض، حيث لا نراها. ومع كل نوبة جزر للمياه الخضراء، يتخلى الرمل عن بعض منه لصالح البحر، ومع كل دفقة ماء، يلقي البحر برمل آخر يستحوذ عليه الشاطئ من جديد. هذا الشريط الضيق من الشاطئ لا يعرف ـ على وجه البسيطة ـ شيئا بقدر ما يعرف تلك الأمواج البيضاء تسوطه، وتداعبه، وتنهار فوقه، وتندثر فيه. والزبد الأبيض لا يعرف إلا هذه الرمال تنتظره، تهب في وجهه، وتمتصه. ولكن، ماذا تعرف الأمواج عن رمال الصحراء المتراصة الساخنة، اللابثة على مبعدة عشرين، بل عشرة أقدام، من الحافة التي تحفرها؟ وماذا يعرف الشاطئ عن الأعماق، عن البرودة، عن التيارات المعتملة على مبعدة قريبة، هناك، هناك ... ألا تراها؟ هناك، حيث يتغير لون الماء إلى زرقة غامقة.

ميلودي

عطر الياسمين يملأ الجو. كان أيضا يملؤه طوال الشهر الماضي ـ فيما أظن. هكذا يمكنك رصد تغير الفصول في هذا البلد. في هذا البلد تزهر البوجينفيليا الحمراء على الجدران طوال العام. والسحالي تمرق خارجة من تحت الأحجار لتعود إليها ثانية. البعوض يطن خارج النوافذ المسدودة بالسلك، ويمكنك ـ كل صباح من الثامنة حتى العاشرة ـ رؤية عامل النظافة يعتني بحمام السباحة. لا يُسمح لنا باستعمال الحمام، نحن النسوة، استعماله قاصر على الأطفال. والرجال بالطبع، يمكنهم استعمال أي شيء يريدونه. وهم يقومون بهذا فعلا؛ أقصد يستعملون كل شيء. أنا لا أذكر أني شممت الياسمين بهذه القوة من قبل. فالليل هو الوقت الوحيد الذي يمكن فيه تنسم هذا العطر، وأنا لا أخرج كثيرًا في الليل بسبب (شون). ولا تفهم من هذا أن هناك أماكن كثيرة هنا يحب المرء زيارتها ـ فليس هناك، في الواقع، سوى الذهاب إلى السوق، أو للزيارات داخل المجمع السكني. ولكني لا أذهب حتى إلى تلك الأماكن كثيرا. فشون ينام في الثامنة. وإن لم يحصل على حصته من النوم ـ ١٢ ساعة ـ يظل مزعجا طوال اليوم التالي. وهو يستيقظ في السابعة والنصف صباحًا ليلحق بأوتوبيس المدرسة.

هناك شيء واحد لم أفهمه أبدًا: لماذا لم تذهب تلك الطفلة إلى المدرسة؟ كانت تبقيها إلى جانبها طول الوقت. في البدء، عندما حضرنا إلى هذا المكان، منذ ستة أشهر، كانوا هم أول من قابلناهم ـ بخلاف عمال الصيانة والبستانيين. جئنا في عصر يوم جمعة، وكان أول ما فعلناه هو أننا خرجنا ثانية، وتجولنا بالسيارة في الطرق القريبة. وأذكر أننا قلنا إنه من حسن الحظ أن هناك محل بقالة، ومتعهد جرائد، ومحلا لبيع الأزهار، ومستشفى، على بعد خطوات من المجمع. ورغم أنك لا تستطيع أن تصف أيا من تلك المحلات بالرقي، إلا أنها أفضل من لا شيء. وفي صباح السبت، وأنا كنت عائدة مع شون من محل البقالة، وكان (ريتش)، زوجي، قد غادر بالطبع إلى عمله ـ شاهدنا امرأة وطفلة تقفان بجوار حمام السباحة. ابتسمت المرأة، وجرى شون إليهما، وتبعته أنا. وأذكر أن انطباعي الأول عن المرأة كان أنها متبرجة إلى حد ما: شعرها بلون البرونز، ويمكنك أن ترى الجذور السوداء عند انتهاء الصبغة قرب منابته. وكانت تضع ظلالا سوداء حول عينيها، وترتدي فستانا أقصر مما تعودنا أن نراه في هذا البلد. لم تكن ترتدي العباءة، ولم يكن هذا ـ في ذاته ـ أمرًا مستغربا داخل المجمع، ولكن ليس مع ذلك الفستان القصير. ومع ذلك، كانت الطفلة جميلة جدا، وتعلق شون الصغير بها من اللحظة الأولى. كانت شقراء حقيقية، وشعرها متموج بشكل طبيعي خلاب. كان وجهها بيضاويا، ولها أنف مرفوع الطرف، صغير، وعينان زرقاوان واسعتان. وكانت ترتدي خمار أمها كأنه عباءة مصغرة. كانت تكبر شون بعدة شهور فقط، لكنها كانت أكثر ثقة واعتدادا بنفسها، كما هو حال البنات دائما. عمومًا أخذت (إنجي) (كان هذا اسمها ـ أعني المرأة) تتحدث ـ إن كنت تستطيع أن تسمي ذلك حديثا، إذ إن لغتها الإنجليزية ركيكة جدا ـ حدثتني قليلًا عن المجمع، وسألتها عن المدرسة التي التحقت بها ابنتها، لأنني كنت بحاجة لأن أختار مدرسة لشون، فقالت إن (ميلودي) لا تذهب إلى المدرسة.

وأخبرتني أن لديها ولدا رضيعا ـ اسمه كمال ـ وأنه نائم بالمنزل. كانت تبقيهما معها، وكانت تُعلم ميلودي القراءة والكتابة. قالت: «أحب لها أن تبقى معي» فكرت على الفور أن هذا خطأ، برغم أنه ـ بالطبع ـ لم يكن من حقي أن أقول ذلك، لكن الطفلة لم تكن تعرف كلمة إنجليزية واحدة. كانت جميلة جدا، ولم يرفع شون عينيه عنها، بينما أنا وأمها نحاول أن نتجاذب أطراف الحديث. وأعتقد أن شون وقع في الحب.

بعد أيام، سقطت بندقية شون في حمام السباحة، ولم أستطع الوصول إليها، وكان هو يبكي بكاءً مريرا. ظهرت إنجي في نافذتها، وأنزلت يد المكنسة وهي تصيح: «جربي هذه، جربي هذه» ـ وهكذا أخرجنا البندقية من الماء، وصعدنا إلى شقتهم كي نعيد يد المكنسة. وأصر شون على البقاء للعب مع ميلودي. لم أفهم أبدا سر هذا الانجذاب، فالحقيقة أنها لم تكن حتى لتمارس نفس ألعابه، بل كانت تلعب بالدمى وتلبسهن ثم تخلع عنهن ثيابهن وتحادثهن بالتركية، بينما هو يراقبها. وفي أحد الأيام ذهبت لإحضاره ووجدتهما ـ شون وميلودي ـ جالسين على أرضية الحمام بأقدام عارية وملابس مبتلة. وكانت إنجي تضحك وتقول: «الجو حار جدا» أهم ما كان يميز إنجي هو الضحك، الضحك والاهتمام بالملابس والتزين والرقص والطهي. وفي أوائل إقامتنا هنا في المجمع كانت تزورنا مرتين في الأسبوع. وفي كل مرة تحضر معها «شيئا صغيرا» من صنع يدها: فطائر، كعكة التفاح، بيتزا، أو أي شيء مماثل. وكلها أشياء تستغرق وقتا في الإعداد. وكانت ميلودي الصغيرة تساعدها. وتساعدها أيضا، كما قالت، في صنع فساتين الدمية (باربي). قلت لها: «لكن يمكنك شراء ملابسها من محلات تويلاند بمبلغ زهيد» وأذكر أنها ضحكت وهزت كتفيها وقالت: «لكني أحب الحياكة» وأعتقد أنها تحب أن تطهي وجبة كاملة لزوجها كل ليلة، ولا تمانع في أن تقف وتخدم عليه أيضا. إن الطريقة التي تعامل بها هؤلاء النسوة المسلمات أزواجهن تصيبني بالغثيان. إنهن يتصرفن بالفعل كأنهن جواري. وبالطبع من المحتمل أن يكون هذا هو سر اقترانه بها: تعجبت عندما رأيته أول مرة: رجل طويل ضخم، ومن الواضح أنه يكبرها بكثير. قالت ـ وهي تضحك ـ إنهم (إنجي وميلودي وكمال) عائلته الثانية. تظاهرت بالدهشة ولكن في الحقيقة سبق وأخبرتني (إيلين) بذلك. إيلين هي صديقتي الإنجليزية، وهي تعيش هنا منذ أربع سنوات وتعرف كل شيء ـ أخبرتني أنه كان متزوجا من أمريكية، وقد عاش في (دينفر) لمدة عشرين سنة. كان لديهما ولدان، هو والأمريكية، وكان يعتني بهما، ويقوم بأعمال المنزل أيضا. كانت الزوجة تعمل ولها شخصية قوية، ولم تشأ أن تتعب نفسها في البيت. كنت متعاطفة كثيرا مع ذلك الموقف؛ أعني أنني أيضا لا أحب الأعمال المنزلية: أنا أفضل أن أقرأ كتابا. ورغم أنني أقوم بها هنا ـ أعني الأعمال المنزلية ـ لأني ليست لي وظيفة، بينما ريتش له ـ إلا أني لا أحبها. على أي حال فإن زوج إنجي (لم يكن بالطبع زوج إنجي في ذلك الوقت) ملَّ ذات يوم ـ وبعد أن حصل على حق الإقامة ـ ذلك الأسلوب في الحياة، فحزم أمتعته وارتحل إلى بلده، حيث اقترن بزوجة تركية ترى من الطبيعي أن تخدمه في كل شيء. أحضرها معه إلى هنا، حيث يستطيع أن يحتفظ بها سجينة، بينما ينصرف هو إلى كسب الأموال الطائلة. ولا نعلم حتى إن كان قد طلق زوجته الأولى. لم تقل إنجي بالطبع شيئا من هذا. قالت فقط إنه عبقري، ويعشق عمله، ويستطيع إصلاح أي آلة على وجه

الأرض، وإن زوجته الأولى «سيئة جدا»، وإنه رجل «مرح وظريف» وأثبتت قولها بشرائط الفديو: فها هو يرقص وسط أهله في عيد ميلاد ميلودي الثالث، وها هو يصور ميلودي وإنجي الحامل؟ يمرحان في غابات (فرمونت). غاية في المرح والظرف. وإنجي أيضا تتميز بال-«مرح والظرف» حين تزورها تجد دائما موسيقى صاخبة: ديسكو، روك، شرقي، كل شيء. وإحدى ألعاب ميلودي المفضلة هي أن تجلس شون على كرسي، وتطلب من أمها أن تضع شريطا بتلك الأصوات التي تتأرجح بهستيرية بين الولولة ودق الطبول والصاجات، وتربط إيشاربا حول وسطها، وترقص له. وهي فعلا راقصة متمكنة: تدق بقدميها، وتحرك ذراعيها حركات ثعبانية، وتثني رقبتها من جنب إلى جنب، وتميل إلى الوراء حتى أتوقع أن تقع ـ أما شون، شون الذي لا يستطيع عادة الجلوس دقيقة واحدة دون تململ ـ فيجلس كالمسحور، يحدق في تلك الشقراء الصغيرة التي لا تتحدث كلمة واحدة من لغته وهي تتخايل وتتلاعب بالطرحة. والحق، لم أكن حتى متأكدة من أن هذه الصداقة لن يكون لها أثر سيئ عليه. لكنه كان يبكي ويثور إذا حاولت منعه من الذهاب ـ فكان من الأسهل أن أتركه. أذكر مرة اتفقا على أن تأتي ميلودي إلى منزلنا لتلعب معه. ومر الوقت، ولم تأت. جلس ينتظر. لم يكن قد أكمل الرابعة، لكنه جلس وانتظر ساعتين كاملتين. ثم طلب مني أن آخذه إلى بيتها، ولما لم نجدها جلس في مدخل البيت وبكى. وكان هذا المجمع كله، بالنسبة له، هو «حيث تعيش ميلودي» ولا أعتقد أن اهتمامها كان يعادل اهتمامه، فقد كان لها أخ، وشون لم يكن له أحد. أو بالأحرى له ثلاثة إخوة، لكنهم أكبر منه كثيرا، ويعيشون في (فانكوفر). في الواقع نحن أيضا أسرة ثانية. كان ريتش متزوجا لمدة خمسة عشر عاما. ولا أعلم الكثير عن زوجته الأولى ـ سوى أنه يدفع لها نفقة كبيرة مما يجعل من الضروري بقاءنا هنا لفترة طويلة. له منها ثلاثة أبناء ولم يكن يرغب في أطفال جدد. وشون نتيجة صفقة عقدتها مع ريتش. حين جاءه العرض بعقد في هذا البلد، وكان يريده ـ كم كان يريده ـ قلت «أعطني ما أريد، أعطك ما تريد» ولم لا؟ هل ترضى كل امرأة أن تدفن حية في مكان مثل هذا؟ وقع العقد، واشترينا السيارة الجيب، وبدأنا الرحلة عبر أوروبا، وأثناء عبور فرنسا عملت على أن أحمل ـ ونجحت. كان أمله أن يكون المولود بنتا، وحين جاء شون، تراجع تماما وذهب وأجرى عملية تعقيم حتى لا أستطيع أن أطلب منه طفلا آخر. تقول إنجي إن زوجها يريد طفلا ثالثا، ويتحدث دوما عن هذا. لكن إيلين قالت لي إن إنجي أخبرتها أنها تتعاطى حبوب منع الحمل. وهي لا تريد أن تحمل لأن عرافة في بلادهم قرأت لها الطالع وقالت إنها سوف ترزق بثلاثة أطفال، وسيحزنها أحدهم حزنا لا شفاء منه. وهي تعتقد أنها إذا اكتفت باثنين فلن تتحقق النبوءة. لا أدري. أنا لا أعتقد في هذه الأمور، لكنك أحيانا تسمع روايات ـ على كل حال، كان زوج إنجي مصرا على إنجاب طفل ثالث، وفي كل شهر يترقب ليرى إن كانت قد حملت، وهي تتعاطى الحبوب في السر، وتخبئها وسط ملابس ميلودي الداخلية، وتعيش في رعب من احتمال اكتشافه لها. هكذا الرجال المسلمون: لا يكتفون بما لديهم من أبناء أبدا، وأغلبهم يريدون الولد. لكن هذا الرجل كان يريد بنتا . سألت إنجي كيف تأتى أنه يريد بنتا فقالت أنه يعتقد أن البنات أكثر «رقة وحنانا» من الأولاد. بالإضافة إلى أن الولد ينتمي ـ في الأخير ـ إلى زوجته بينما الفتاة تظل «حبيبة أبيها إلى الأبد» ثم أضافت: «ولكن بالطبع نحن نؤمن أن كل ما يأتي به الله فهو خير» بالطبع.

هذا هو نوع الحديث الذي يمكن أن تجريه مع إنجي. هي أيضا تعرف أخبار كل ما يجري، أو ـ كما هي الحالة في الغالب ـ كل ما يكاد أن يجري حولنا: الأطفال الذين كادوا يختطفون، حوادث الاغتصاب التي لم تتم، الفلبينيون الذين لم يعدموا بل تم ترحيلهم، الألمان الذين فقدوا عقولهم. وبرغم ابتذالها، كانت أما طيبة. كانا والدين طيبين. كنت تجدهما دائما في ملاهي الأطفال يوم الخميس الأخير من كل شهر ـ يوم العوائل ـ تجد هذا التركي الضخم ذا الشعر الأبيض ينزلق على الزحليقة العالية، وميلودي الصغيرة في حجره، متشبثة برقبته، بينما تلوح لهما إنجي، وهي تضم كمال إلى صدرها ضاحكة.

الآن، بالطبع، لا تراهم هناك. في الواقع، لا تراهم في أي مكان ـ بالرغم من أنهم لا زالوا في هذا البلد ـ بل في هذا المجمع السكني، هنا. والحقيقة، أن الكل يشعر بنوع من الحرج حين يراهم. كانت إيلين تقول دائما إنه غريب الأطوار، ولكني لم أدرك مدى غرابته حتى سمعت قصة الفيديو. وهذا بالطبع كان مؤخرا. حين حدث ما حدث، لم أكن قد رأيت إنجي لبعض الوقت. قللت كثيرا من زياراتي لها. كنت أصطحب شون إلى منزلهم: أتركه ثم أذهب لاستعادته. لكني ذهبت تلك الليلة. أحسست بضرورة أن أذهب. وكان الهواء في المجمع ـ كما سبق أن قلت ـ مليئا برائحة الياسمين، بل كان مثقلًا بها.

كانت الساعة الثامنة، والأولاد الكبار لا زالوا يلعبون خارج البيوت: يتسلقون السور الحديدي الذي يحف بمنطقة حمام السباحة، ويجرون بين الأشجار، يتهامسون ثم ينفجرون ضاحكين. كان من الضروري أن أذهب. أنا أعرف أن أناسا كثيرين ذهبوا في الليلة الماضية، وكنت أرقب الذاهبين والعائدين طوال الصباح وبعد الظهر. نعم، ربما تكون هذه عادة المسلمين، أما نحن فنكتفي بإرسال بطاقة، أو نذهب للجنازة. لكنني قررت أن من الأفضل أن أذهب حتى لا أبدو غير ودودة. لذلك انتظرت حتى أوى شون إلى فراشه، وأخبرت ريتش، وخرجت، وفاجأني نسيم الليل بعطره. سرت ببطء: فلم أكن أدري كيف أتصرف أو ماذا أقول عندما أصل. نظرت إلى أعلى، فوجدت نوافذهم كلها مضاءة، والستائر مفتوحة على اتساعها. صعدت الدرج، وتناهى إلى سمعي صوت أدركت أنه ترتيل القرآن، فطرقت الباب، وفتح لي أحدهم، ودعاني للدخول، ووجدت نحوعشرين رجلا يجلسون صامتين في دائرة حول جهاز تسجيل. وفي ركن مستتر، رأيت امرأة محجبة، ترتدي السواد، وتجلس على الأرض، تنصت للتراتيل. وقفت لا أدري ما أفعله، فقامت المرأة من على الأرض، وحيتني، ورأيت أنها إنجي. فتحت الباب المؤدي إلى الجزء الداخلي من الشقة وأدخلتني ثم أغلقت الباب خلفنا. جلست هي على الأريكة وجلست أنا على مقعد بجوارها. كانت الشقة تعج بالنساء. نساء وأطفال صغار. نسوة يجلسن، يتصنعن القوة، يعددن الطعام ويقدمنه للرجال في الخارج. وقفت إحدى السيدات في المطبخ تغسل الأطباق وأخرى في الحمام تطوي غسيلًا جف ـ وكلهن يلبسن السواد. لكن الأطفال كانوا بمثابة مساحات مشرقة من الألوان وسط السواد. كمال يلبس سروالًا أحمر وقميصًا أبيض، ويتعلق بساق أمه لحظة ثم يندفع نحو دراجة أخته الزرقاء اللامعة ذات العجلات الثلاث. وقع وبكى والتقطته إحدى النسوة تهدهده.

وأخيرا، نظرت مليا إلى إنجي. كنت مستعدة لأن أجد أنها كبرت سنوات خلال ليلة واحدة. لكن ما حدث كان العكس، فقد بدت ـ في الحقيقة ـ أصغر سنا من ذي قبل. ولا أدري كيف تمكنت في ثلاث وعشرين ساعة من إنقاص وزنها بهذه الصورة، لكنها فعلت، وبدت نحيفة وهزيلة في فستانها الأسود القطني. لا تضع مساحيق على وجهها، وشعرها مشدود إلى الوراء، ومعقود بشريط من المطاط، وعيناها تحيط بهما هالات سوداء. وبدت بشرتها ـ ليس بشرة وجهها فقط، بل يديها، وذراعيها وقدميها وكل ما يمكن رؤيته منها ـ بدت أكثر رقة وقريبة للشفافية. فقدت توازنها الداخلي، وأصبحت حركاتها بطيئة ومرتبكة كفتاة في سن المراهقة الأولى. عندما تجلس تلتف قدماها إلى الداخل مثل بنت مدارس خجولة أو دمية مكسورة. عيناها ملتهبتان. وعندما لمحتني أنظر إليهما أشارت هامسة «ليس لدي دموع» كذلك لم يكن لديها صوت، حتى الهمسة كان عليها أن تجاهد لإصدارها. بين اللحظة والأخرى كانت تختلج وتبدو على وشك الانخراط في نوبة من النحيب، لكن اللحظة تمر ويعاودها الهدوء وهي تجلس واضعة يديها فوق ركبتيها وقدماها متواجهتان. همست وهي تحدق في يديها «الناس تعيش إلى الخمسين، إلى السبعين والثمانين حتى، وهي تعيش خمسين شهرا» تشير المرأة الجالسة بجانبها على الأريكة ـ امرأة مصرية سمينة تنضح عرقا لا يمكن التمييز بينه وبين الدموع ـ تشير إلى السقف ثم تفتح يديها وكفيها لأعلى. تهمس: إنجي: «لقد أعطاها لي. فلماذا يأخذها مني؟ لماذا؟» امتدت يد المرأة وربتت على يد إنجي وقالت: «أنت مسلمة» حشرج صوت إنجي وهي تجاهد لخرق جدار الهمس: «أنا مسلمة. نعم. لكنها ابنتي» ثم دخلت في إحدى نوبات التشنج القصيرة الخالية من الدموع. ربتت المرأة على يدها ثانية والتفتت وقالت عبارة بالعربية لابنتها الضخمة الجالسة وراءها في ثوب سوقي من الدنتيلا السوداء. مدت إنجي يدها تحت وسادة الأريكة واستخرجت علبة سجائر. أسرعت ثلاث نسوة تركيات يحضرن لها طفاية. أطفأت السيجارة بعد أن جذبت نَفَسين وسَعَلت بشدة. تحرك ذراعاها الأبيضان ـ الخاليان من الأساور والخواتم (عدا خاتم الزفاف) ـ في حركات مسرحية: «لا أستطيع أن أصدق، من الأمس وأنا أفكر: سوف تأتي من هنا .. سوف تجري من هناك. أراها تجري، لا زلت أسمع صيحتها ـ ماما ـ كل شيء حدث في دقيقة واحدة. قتلتها. أنا التي قتلتها» ضربت بيدها على صدرها. جاءت امرأة تركية، تقول إيلين إنها أقرب صديقاتها من المطبخ ووقفت ترقبها دقيقة. أمسكت المصرية بيدها وقالت: «لكن ماذا حدث؟ كيف حدث ذلك بالأمس؟»

«بالأمس» همست إنجي، مثل إنسان آلي قاربت بطاريته على الانتهاء: «كنا في المنزل طوال اليوم. لم يهدأ الصغيران. أخذتهما إلى الممر التجاري. كان زوجي متعبًا وقال إنه لن يستطيع أن يصحبنا. قلت لا بأس، نمشي. اصطحبت صديقة لي ـ تقطن في الطابق الأسفل ـ ومعها طفلها، لنذهب في جولة، نشتري (آيس كريم) للأطفال، ثم نعود. وحين رجعنا إلى المجمع، تذكرت أنه لم يعد عندي (سيريلاك) لكمال. قلت لصديقتي: راقبي الأطفال، وسأعبر الشارع لإحضار السيريلاك ـ «نظرت حولها» لا أريد أن آخذ ميلودي إلى المحل. إنها دوما تطلب الشوكولاته والحلوى وأنا أعتقد أن ذلك ضار لها ـ وافقت صديقتي وعبرت الطريق. وفجأة سمعت ميلودي: ـ ماما ـ التفتت ـ كانت تجري نحوي ـ والسيارة أتت مسرعة» ساد السكون. هزت رأسها: «رأيته يصدمها، رأيت

السيارة تجرفها وتحملها إلى أن سقطت وأخذت تتدحرج وتتدحرج. الناس كلها كانت تجري والرجل صاحب محل الزهور حملها وجرينا إلى المستشفى ـ لكنها ماتت» سقطت يداها على ركبتاها وتلفتت حولها، نظرت إليَّ، كانت عيناها تنطقان بالتساؤل والشك، كأن أحدنا سيخبرها أنها على خطأ وأن ميلودي لم تمت. غمغمت المرأة التي تجلس بجوارها بالعربية ومسحت وجهها، وبدأت امرأتان تركيتان ـ إحداهما بضفيرة ونظارة مستديرة وتحمل مولودا سمينا، والأخرى تبدو من الطبقة الموسرة، بأظافرها المطلية بعناية وخاتم الثعبان الذي يغطي إصبعها كله ـ بدأتا في البكاء في مناديل ورقية من اللون الوردي. كانت إنجي تهتز يمنة ويسرة على الأريكة وكمال يستند إلى ساقيها ويقضم إصبعا من الخيار. كانت لعب ميلودي تملأ الغرفة و«موسوعة الطب المنزلي» ترقد فوق المكتب.

غادرت المكان، وتلكأت في الحديقة، وكنت لا أريد ـ في الحقيقة ـ أن أعود إلى المنزل، وقلت طالما أن ريتش يعتني بشون هذه الليلة، سأذهب إلى إيلين. لم أستطع البقاء معها طويلًا لأن زوجها (مايك) كان موجودا، لكني أخبرتها بما شاهدته في بيت إنجي فقالت: «إنه لا يخرج أبدًا في العطلات. هو يعمل طوال الأسبوع وينام في كل العطلات. والصغار لا يهدأون» ولكني ـ كما سبق وقلت ـ رأيته مرات في مدينة الملاهي.

عندما تركت إيلين قررت أن أخرج من المجمع، وأعبر الشارع وأشتري بعض الزهور: ستكون مفاجأة لريتش، حيث إني لا أفعل مثل تلك الأشياء كثيرًا، لكنها فقط بمثابة تعبير عن امتناني لعنايته بشون.

عبرت الشارع. لا توجد أي آثار على الطريق، لا يوجد التواء بأعمدة النور ولا (كوردونا) من رجال الشرطة. لا شيء ينبئ أن حدثا غير عادي قد وقع بالأمس هنا. بائع الزهور كان لبنانيًّا به نعومة، ولم أكن أستلطفه. قال: «هل رأيت ما حدث ليلة أمس؟»

قال: «لقد شاهدت الأمر كله. لم ير أي شخص المشهد بوضوح مثلي»

تخيرت خمس وردات حمراء وبدأ هو ينزع عنها الأشواك والأوراق.

«كنت أقف بالباب هنا. ورأيت السيدة تعبر الطريق. إني أعرفها. وكثيرا ما أراها. دائما مع الأطفال. في هذه المرة رأيتها تعبر الطريق. والسيدة الأخرى تنتظر مع الأطفال، ورأيت البنت الصغيرة: رأيتها تنادي ـ ثم تجري. تلتفت الأم إليها وتأتي السيارة و ـ (بوم) ـ بقبضة يده اليمنى، يلكم كفه الأيسر لكمة قوية: ـ فقط (بوم) ـ حملتها السيارة مسافة أربعة وعشرين مترا. الأم على الجزيرة بمنتصف الطريق. يداها ممدودتان ـ لكن الصراخ جاء من الفرامل والإطارات ـ» وضع الورد بعناية فوق ورق (السيلوفان) وانحنى ليلتقط بعض الفروع الخضراء ليضعها معه.

«بدأت في العَدْو. كانت السيارة قد أسقطتها، وبدأت هي في التدحرج إلى أن وصلت إلى ذراعي هكذا. كان الدم في كل مكان. حملتها، تدلت رأسها وكانت العينان مقلوبتان فلا أرى منهما سوى البياض. لكنها كانت تتنفس. ضممت رأسها إلى صدري وعدوت بأقصى ما أستطيع من سرعة إلى المستشفى. كانت الرأس تنفث الدم على جسدي في دفقات. اليوم ـ أتعرفين ـ سألت صديقي الطبيب ـ الذي ألعب معه الشطرنج ـ كم تبلغ كمية الدم في جسم طفلة في الرابعة؟ قال: ربما أربعة لترات. أقول لك: لقد كان هناك على الأقل أربعة لترات من الدم على ملابسي أنا. هذا خلاف الدم على الطريق. والحق أني وقتها لم أنتبه. حملتها إلى المستشفى، لكنها كانت ميتة. فيما بعد ـ عندما عدت إلى هنا، بدأت أشم الرائحة. نظرت إلى نفسي فوجدت أني مغطى بالدماء»

لف بعض الورق المفضض حول سوق الأزهار ليبقيها منداة.

قلت: «سمعت أن أباها اندفع محاولا قتل السائق؟»

ـ «نعم. لكنهم أمسكوه. ماذا يجدي ذلك؟ كان بالفعل مسرعا ـ لكن كلهم هنا يسرعون. ولم يتوقع أن تجري طفلة إلى منتصف الطريق في العاشرة مساءً. هو الآن في السجن وسيدفع تعويضا ـ تعرفين: الدية ـ»

ربط شريطًا أبيض حول باقة الورد الملفوفة بالسيلوفان:

«جاء الأب صباح اليوم ومعه كاميرا فيديو، والتقط فيلما للطريق. خرجت لأرى ما يحدث فأجرى معي مقابلة. أرادني أن أعيد تمثيل ـ بالضبط ـ ما حدث: هنا صدمتها السيارة هكذا، وهنا قمت بالتقاطها هكذا، وجريت هكذا ـ لقد صور فيلما كاملًا لكل شيء، هذا المسكين»

أعطيته نقوده، وذهبت إلى المنزل بالورود. وضعتهم في (فازه) وأخبرت ريتش بالأمر كله، لكنه كان قد انخرط في قراءة كتاب، ولا أعتقد ـ حقا ـ أنه كان يود السماع. لكن إيلين تود السماع، فذهبت لزيارتها في الصباح التالي بمجرد أن أركبت شون سيارة المدرسة. وطوال فترة الحديث كان لدي شعور بأنها تخفي أمرا ما. وبالفعل، ما إن انتهيت حتى قالت:

«وهل تعرفين ما فعله الأب بعد الظهر؟ ذهب إلى المشرحة حيث كانوا يغسلون البنت ويعدونها والتقط صورا للعملية كلها»

«ولكن كيف سمحوا له؟»

«قالوا إن الرجل المسكين فقد عقله من الحزن ومن الأفضل تركه يفعل ما يريد ـ بالإضافة إلى أنهم خافوا منه، فهو ضخم الجثة وعنيف. وتعرفين ماذا فعل في المساء، بعد ذهابك وذهاب الآخرين، ولم يبق في البيت ـ خلاف الأسرة ـ سوى الصديقة الأعز

لإنجي؟»

مالت إيلين إلى الأمام وذراعاها متكئان على ركبتيها:

«أجلس إنجي وأرغمها على مشاهدة الفيلمين: الفيلم الذي صوره في الطريق، والآخر الذي صوره في المشرحة. ثم عرض أمامها الفيلم الذي صوره في عيد ميلاد ميلودي الأخير. قال إن ما حدث كان مسؤوليتها وأنها يجب أن تعلم هذا وتشعر به تماما»

لذا أقول إنه غريب الأطوار. غريب ـ على كل حال ـ بالنسبة لي. يقولون إنه يريدها أن تحمل في الحال لتهبه بنتا أخرى. وإنه لا يسمح لها باصطحاب طفلها كمال خارج المجمع لأنه لا يأتمنها عليه.

ظلت ميلودي بالمشرحة أسبوعا إلى أن حصلوا على تأشيرة خروج لها. أخذ هو إجازة من عمله، وسافروا جميعا إلى تركيا كي يدفنوها في بلدتهم. إيلين تعتقد أن هذه سفاهة، ولكني أفهم أنهم لا يريدون ترك الصبية تدفن هنا وهم سيغادرون المكان في النهاية. وقد مروا بوقت عصيب بسبب تلك الموجة الثلجية التي دامت خمسة أيام وغطت تركيا والأردن بالجليد، واستغرقت الرحلة من المطار إلى بلدتهم عشر ساعات. وعلى العموم، في هذه الظروف، الجليد أفضل من الحر بالتأكيد. على أي حال، لقد أخبر كل من في البلدة أن اللوم يقع على إنجي. ورغبت هي أن تبقى مع أمها قليلًا، لكنه أعادها معه، لأنه لن يترك كمال في رعايتها، ولأنها يجب أن تحمل من جديد. وهم الآن هنا، والموقف كله شائك جدا. لا يعرف أحد بالضبط كيف يحادثهم، فنتجنبهم كلنا بقدر المستطاع. الكل ـ في الحقيقة ـ يرى أنهم يجب أن يغادروا. ولكن الرجل أمضى أربع سنوات فقط وعليه أن يبقى عاما آخر كي يستحق المكافأة. نحن جميعا نفهم ذلك، لكننا لا نفهمها هي، كيف يمكنها أن تعبر هذا الطريق دون أن تفكر في ميلودي؟ كيف يمكنها أن تسير في الحديقة؟ أو تحيا داخل الشقة؟

تلك الليلة، مالت نحوي وقالت:

«لقد كانت» ثم التفتت إلى المرأة التركية ذات النظارة وسألتها شيئًا بلغتها، وبدا أنه هام جدا. فكرت المرأة لحظة، ثم قالت في جد: «غير أنانية»

«نعم»، همستها إنجي لي بحماسة: «كانت طفلة طيبة ولم تكن أنانية. كانت طفلة طيبة»

قلت: «إني آسفة. آسفة جدًّا»

أخذت تحدق في السجادة.

«كانت ابنتي. صار بيتي الآن خاليا»

ربت على ركبتها ـ الركبة التي لم تكن المرأة المصرية تربت عليها: «عندك كمال»

نزلت بعد ذلك بقليل. كان بعض النسوة يغادرن. وأخريات يأتين. وزوج إنجي يخطط لعرض أفلامه. حين خطوت خارج المبني بدا النسيم منعشا ورائحة الياسمين أكثر قوة. والأطفال لا زالوا يتسلقون سور حمام السباحة ويطنون بالحديث وأذكر أني فكرت حيرى: كيف أسوق النبأ إلى شون؟

شي ميلو

تجلس ميلو خلف ماكينة صرف النقود، تغطي ركبتيها بطانية من الصوف الكاروهات رمادية اللون، وفوق البطانية تجلس أتينا، وهى كلبة، مرتاحة، لونها أشبه بالجلد الفاخر، ناعمة، ممتلئة، لكنها ـ دون شك ـ تقدمت في السن، يبدو هذا واضحا في عينيها. أحيانا تغامر بالنزول إلى الأرض، وتقف برهة بين أقدام الجرسونات، فتثير قلق ميلو التي تنحني لتبحث عنها. تناديها، فتهرع أتينا عائدة إليها، ويمر أحد الجرسونات ـ وغالبًا ما يكون صيام، النوبي العجوز ـ فيلتقطها، ويعيدها إلى حجر سيدتها. ميلو تحتضن أتينا وتداعبها طوال اليوم. سمنت أصابع ميلو، وفقدت مرونتها، لكنها ما زالت تطلي أظافرها، وتتزين بالخواتم الروسية الثمينة التي ورثتها عن جدتها. تنتشر على يديها بقع الكبد البنية الصغيرة، وترتعش اليد في تفنيد النقود وعدها. ثقيلة هذه اليد على ظهر أتينا الممتد الناعم، تربت عليه، وتداعب الأذنين المتدليتين، و تحك الجبين المقطب، والكلبة العجوز تحمحم بصوت خفيض.

كان يمكن لميلو أن تتزوج فيليب، لكن ذلك الزمن مضى ـ تقضي ميلو نهارها ترقب الستائر الحمراء القديمة التي تحجب مدخل المطعم. تعرف كل زبائنها، رغم أنها لا تبش في وجوههم أبدا، بل تكتفي بإيماءة جافة للزبائن القدامى ولضيوف المطعم المنتظمين. أحيانا، يدخل شباب من السياح مصادفة، ويحطون أحمالهم عند الباب، ويتساءلون، ويختلقون القصص حول هذه المرأة الكبيرة، المتجهمة، مخضبة الشعر بالحناء، والتي لا تبرح مجلسها أبدًا. ولكن ـ وبرغم العبوس الخفيف الذي يكسو ملامحها حين تغيب في أفكارها ـ يجد الزبائن في حضرتها نوعًا من العذوبة، فيعودون.

إلى يسارها، وفي الخلف قليلًا بحيث لا تراه إلا إذا أدارت رأسها، يجلس الخواجة فاسيلاكس إلى طاولة مستديرة، بجانبه زجاجة من النبيذ الأحمر، وأمامه ـ على بوفيه صغير لأدوات الطعام ـ جهاز تلفزيون أبيض وأسود، يرسل صورا متراقصة صامتة. قارب الخواجة فاسيلاكس التسعين، وغاب عنه معظم الأصدقاء الذين اعتادوا مجالسته، ومشاركته النبيذ، والشكوى من جهاز التلفزيون الصامت وصوره المتراقصة. ميلو، في العادة، تعرف بالضبط ما يفعله والدها، رغم أنها لا تحيد عن النظر أمامها. أما اليوم، فالخواجة فاسيلاكس هو المتنبه إلى ما يدور في ركن ابنته، فقد أضيفت مائدة إلى طاولة الحساب، وغطيت بمفرش أبيض نظيف، ووضع مقعد خالٍ إلى جوار كرسي ميلو.

اليوم، ترقب ميلو الستائر الحمراء بهدف، فهي تتوقع صديقة لها. إن فرح، في الحقيقة، أصغر سنا من أن تكون صديقة لميلو؛ أمها، لطيفة، هي صديقة ميلو، بدأت صداقتهما حقا في ليلة زفاف لطيفة. ليلة زفاف لطيفة. ميلو لم تعد ترتعد، ولا تحس بالسخونة تصعد إلى رأسها، ولكنها تتذكر. تتذكر المشاعر التي ظلت لسنين تتفجر فيها إذا مرت على خاطرها هذه العبارة البسيطة: مشاعر التعاسة والخزي. يقشعر بدنها، فتسري الرجفة من ظهرها إلى كتفيها، ثم إلى ذراعيها، حتى تستشعر صداها في أطراف أناملها.

وذلك الثقل البارد في معدتها، تضغط عليه، تدلكه، تعجنه، ليصير شيئا باستطاعتها تحمله ـ إلى حين. ليلة زفاف لطيفة: حين هرولت ميلو هابطة سلم الخدم المظلم، إلى شقة إسماعيل مرسي، لتجد ابنته، العروس، في الحمام تخلع طرحتها وتزيل الشنيون المثبت فيه شعرها وهي تغمغم أمام المرآة:

«أكره هذا، لا أطيقه ـ وهو أيضا لا يطيقه ـ سنرتدي هذه الملابس السخيفة ونجلس في الكوشة حيث يحدقون فينا كأننا قرود في الجبلاية، لكني لا أشعر أني (أنا) وهذا الشيء على رأسي. لن ألبس طرحة» عندئذ التفتت لطيفة فرأت ميلو. خطت إليها، أخذتها من يديها، وأجلستها على حافة البانيو. أغلقت الباب بالترباس، وسقتها ماء باردا، وحكت لها ميلو كل شيء. وبدا لميلو وقتها أنه لم يبق أمامها سوى الموت؛ إذ كيف يمكن أن يطلع عليها نهار جديد؟ واليوم، تبدو الحكاية كلها مثل فيلم قديم: فيلم أثار مشاعرها، لفترة من الزمن.

وقع نظر ميلو على فيليب لأول مرة، في فرح إحدى الصديقات، وسط الزغاريد ورنين الصاجات في الكنيسة اليونانية بشارع الملكة. كانت ميلو في العشرين من عمرها، طويلة، جميلة، متينة البنيان. يحتسي أبوها كأسه الأخير، بعد أن يغادر الزبائن، ويرقبها، وهي تخطو هنا وهناك في المطعم المعتم، تطوي المفارش البيضاء، لتعود بها إلى فهيمة تغسلها في البيت. يخبرها مرارا أنها ورثت عن أمها ساقيها الطويلتين القويتين، وشعرها الكستنائي الغزير، ويبدو حزينًا وهو يسوق هذه الملاحظة. يهز رأسه، ويعود يحدق في كأسه، ويعض على أطراف شارب دب فيه المشيب. تعلم ميلو أن أمها، فرنسية الأصل، كانت راقصة، وجميلة ـ ربما لم تزل! هجرت زوجها، وطفلتها الرضيعة، من أجل ـ ويا لبشاعة ما اختارته ـ جندي تركي. تركي أسود العينين، مبروم الشوارب، نزل يختال من سفينته، ذات يوم ربيعي جميل من عام ١٩٢٧، ودخل مطعم أكروبول بالإسكندرية، ليتسبب في خراب بيت ثيوفيلوس فاسيلاكس. وبعد ثلاث سنوات من التوعد بالبصق في وجه العاهرة إن جرؤت على الظهور في الإسكندرية، والوعد بالعفو التام والكريم إن هي عادت ـ فهي على كل حال أم طفلته ـ لم يعد ثيو يحتمل المدينة. باع الأكروبول واصطحب ميلو وفهيمة ـ الخادمة التي ترعى شئونهما ـ إلى القاهرة. قاوم كل الضغوط لتزويجه مرة أخرى، وفتح مطعما، في شارع عبد الخالق ثروت، أسماه (شي ميلو) عرف عند أهل المنطقة بـ(شاميلو) وتطلع إلى اليوم الذي تكبر فيه ابنته، وتصبح شريكة له. وها قد شبت ميلو، وصارت تعمل في المطعم، وتضفي عليه من بهائها، وثيو يرقبها باستمرار، وبداخله رعب من ذلك الصعلوك المغامر الذي قد يأتي يومًا ليوقعها في حبائله ويحطم حياة أبيها ـ المتماسكة بالكاد ـ للمرة الثانية والأخيرة. بالطبع سوف يكون مغامرا. انظر فقط إلى هذه الفتاة ذات الساقين الممشوقتين، والخصر الناحل، والظهر المستقيم، والجبهة العريضة فوق عينين خضراوين متسعتين، والشعر الكثيف الرائع، لترى ابن الكلب داكن البشرة، مفتول العضلات، الذي سوف يغويها. داعر تفوح منه رائحة التبغ والعرق. يرتجف كرش الخواجة فاسيلاكس رعبًا وقرفا، وهو يمضغ شاربه.

لكن ميلو لمحت فيليب وسط البخور والشموع الموقدة في الكنيسة اليونانية، فرأت الفتى ـ وكان من الصعب أن تسميه (رجلا) بعد ـ أشبه بالملاك في سكونه وجماله. كان يجلس في الطرف الأقصى من الجانب البعيد ـ جانب أهل العريس، منعزلًا عما يدور حوله، فبدا مختلفا عن صنف البشر: بدا كأيقونة من الأيقونات البيزنطية تضوي على الجدران: شاحب، رقيق الملامح، يعلو جبهته البيضاء شعر أسود لامع. أنفه صنعه مثال قدير، وفمه واسع، وشفتاه رقيقتان زاهدتان. لم تستطع ميلو تمييز لون عينيه. به صفاء وسكون، والضوء ينسل من رأسه إلى الكنيسة المعتمة. ووقعت ميلو في الأسر.

ولما لم يكن لها أم تقوم بما ينبغي في هذه الظروف، قامت ميلو نفسها بالسؤال عنه، وجزعت قليلا حين عرفت أنه في السابعة عشرة، وأنه لا يزال تلميذا بمدرسة الفرير، لكنها خلقت فرصة للتعارف، فوجدت أنه أطول منها بعدة سنتيمترات، وأن عينيه رمادية خضراء، وأن صوته رخيم وأن لهجته الفرنسية أرقى من لهجتها، ولغته العربية أضعف من لغتها، كما وجدت أن وجهه يبقي على ضيائه حتى عن قرب. وخيل لها أن هناك شيئًا غير عادي ـ شيئًا شبه إلهي ـ يكمن داخله. تاقت إلى الاقتراب، إلى لمس ذلك الوجه المضيء، بعظامه المحددة ، تاقت إلى أن تستقر بأطراف أصابعها في ذلك المنحدر البسيط حيث تنتهي العينان بأهدابهما السوداء الناعمة. اكتشفت أنه ابن الخواجة يني بنايوتي البقال. فهو جار أحد أصدقاء أبيها القدامى، إسماعيل مرسي، الذي يملك مصنعا للأثاث في العتبة الخضراء.

أحنى فيليب رأسه قليلًا، وكأنه يجزع أن تفوته كلمة واحدة من كلماتها. ابتسم، وقالت عيناه إن شيئًا رائعا قد حدث. وميلو مأخوذة من نفسها: لم تشعر أبدا بمثل هذا الضعف الفياض، هذه الطاقة المتقدة، هذا التواصل المباشر الذي لا يحتاج إلى الكلمات.

كان العام ١٩٤٦، وجنود الحلفاء المنتصرين ينتشرون في المدينة. وسعد الخواجة فاسيلاكس بفطنة ابنته حين أعلنت أنه ما دام العمل يسير جيدا، فمن الحمق أن يشتروا احتياجاتهم بالقطاعي من المحلات المجاورة: من اليوم ستشتري كل ما يحتاجونه مرة واحدة في الأسبوع، من محلات الجملة.

تقع بقالة الخواجة يني بنايوتي في بين السورين، هذا الطريق الواسع الذي ظل لفترة قريبة يمتلئ سنويا بمياه الفيضان فيتحول إلى نهر. لم تبعد ميلو عن شارع ثروت إلى هذا الحد من قبل. وفي أول مرة، ذهبت معها فهيمة، التي تعرف كل طرق وحواري المدينة. سارت المرأتان في شارع فؤاد، تتفرجان في فتارين المحلات الكبيرة، ثم عبرتا ميدان الأوبرا، تلامسان طرف حديقة الأزبكية، وعبر دوامة ميدان العتبة الخضراء، إلى شارع الموسكي. بدأت فهيمة تشير إلى محلات البقالة التي يمران بها، لكن ميلو لم ترض بأي منها، فهي مصرة على الذهاب إلى متجر يني بنايوتي، وهو أبعد المحلات كلها. وفهيمة، التي ليست صغيرة ولا ساذجة، تتلاحق أنفاسها وهي تسرع لتجاري ربيبتها، وبدأ يداخلها الشك. ما السلعة التي تدفع فتاة تتزين عادة بالعقل، أن تسير بكل هذا الحماس إلى آخر بلاد الله هكذا؟ ليس هناك سوى إجابة واحدة .. زمت فهيمة شفتيها، ولمت ملاءتها حول جسمها وهي

تلهث خلف ميلو.

كان يني بنايوتي رجلًا طويلا، عريضا، ذا شعر أشعث، كثيف، أسود اللون، تشوبه خطوط من الفضة. وقد وازن انحسار الشعر عن جبهته العريضة بالإفراط في إطلاق ذقنه وشاربه. أعجب بالمرأتين وأجلسهما في متجره المظلل الرطب، وقدم لهما الشاي وأصابع الشوكولاته. وأضحت ميلو تتجه إلى بين السورين صباح كل أحد. ذهبت مرة، ثم ثانية، وفي الثالثة كان هناك. يساعد أباه في رص صفائح الجبن الأبيض. رشفت ميلو شايها الساخن، وراقبت ظهره العريض، تتحرك عضلاته داخل القميص القطني الأبيض، وهو ينحني، ويستقيم، ويرفع الصفائح ويضعها. استرقت النظر إلى البنطلون الرمادي يتشكل على جسده وهو يجلس القرفصاء لحظة أمام الجبن ـ فعضت على شفتيها ووجهت بصرها إلى الأرضية المغطاة بنشارة الخشب. وعندما انتهى من عمله، أخرج فيليب من جيبه منديلًا نظيفا أبيض، ففرده، وجفف جبهته ورقبته. رفض الشاي، ورد على أبيه بطريقة شبه رسمية: «سأترككما تواصلان العمل» انحنى على يد ميلو: «تشرفنا .. فرصة سعيدة جدا» ابتسم في عينيها وغادر المكان. التفت يني لميلو هازًا كتفيه ومادًا يديه على اتساعهما، فرأى على الفور العاطفة التي تحملها الفتاة لابنه في بشرتها المتوهجة وجلستها الجامدة. آه، فلهذا تأتي يوم الأحد، دائمًا يوم الأحد. لقد أوقد فيليب الصغير نارًا ـ

«ويا لها من نار» قال لزوجته في المساء: «الفتاة جميلة، وشعرها مشتعل»

مطت نينا شفتيها، وقطبت لزوجها، هذا الزوج الذي ـ اليوم وبعد أن زوج بنتين وشب ولده حتى صار له شارب ـ ما زال قادرًا أن يغازلها، ويلاعبها، فيعود بها إلى الفراش في صباح يوم الاثنين والمحل مغلق والولد في المدرسة ونينا ترتدي روبها المنزلي المطبوع بالورود، يحيطه حزام يبرز صغر خصرها الرقيق. تتطلع إلى الخزانة الخشبية المعلقة في الركن فوق سريرهما، وبداخلها طرحة الزفاف والتاج من أزهار البرتقال، وتسأله إن كان من اللائق أن يتصرفا كعروسين في شهر العسل فيغلقان الشيش في الصباح بعد خمسة وعشرين عامًا من الزواج؟ ماذا يقول الجيران؟ والخواجة يني يحك شاربه وذقنه في رقبتها ويهمس: «يقولون الخواجة العجوز ما زال مجنونًا بها ـ وهم على حق، أليس كذلك؟ أليس كذلك ياصغيرتي؟» وتحيطه نينا بذراعيها في رقة، وتتركه يحبها، وتدبر في ذهنها الأكلة الشهية التي ستعدها لغذائه. مطت نينا شفتيها وركزت نظرها في قطعة التطريز الفرنسي في يدها: الفتاة كبيرة، تكبر فيليب بأربع سنوات. يجب ألا يتساهل يني في مثل هذه الأمور. الرجل يضيق بسهولة بالزوجة التي تكبره سنًّا. لكن من ناحية أخرى، البنت وحيدة أبيها: ليس لديها أم تثير المشاكل ـ والخواجة فاسيلاكس ـ أطال الله عمره ـ يورثها مطعم يكسب جيدا، في موقع مهم من المدينة.

استمر النقاش، واستمرت زيارات ميلو لمحل يني بنايوتي. تخرج فيليب من الفرير والتحق بكلية التجارة، وفي صباح كل أحد تعبر ميلو وسط المدينة إلى مخزن البقالة في بين السورين، وتشرب الشاي مع الخواجة يني، وتؤجر حنطورًا ليحملها، ومعها

المشتريات، عائدة إلى شارع ثروت. تكاد تفقد الحماس .. يكاد اليأس يتسلل إلى نفسها .. ثم تراه، تراه فيشتعل القلب، ويتجدد اليقين: إنه ينوي أن يفاتحها. تلتقي نظراتهما، وفي كل مرة يبدو اللقاء وكأن مدته تزداد بمقدار جزء من الثانية ـ جزء ذي دلالة ـ ترى ابتسامته قد حملت سؤالًا، سؤالا تتوق للرد عليه!

إلى أن جاء يوم فرح لطيفة.

قبل الفرح بأيام، جلست فهيمة على الأرض عند قدمي ميلو، تمسك بشفتيها مجموعة من الدبابيس، ويفيض حولها قماش التفتاه الأخضر. أخرجت الدبابيس من فمها وقالت:

«يا تطلعيه من عقلك، يا تشوفيلك صرفة. الست الناصحة تتصرف. ثلاث سنين فاتوا ومش واخدين منك غير كلام ـ النهاردة ضغط على إيدي ـ إمبارح جت عينيه في عينيا ـ إيه يا ختي الكلام الفاضي ده؟ هو لعب عيال؟ ده ما عادش صغير ـ مش دخل الجامعة؟ يمكن ما لوش في الستات؟ ماهو انتو منكم كتير كده يا جريج ـ بس لأ ـ شايفه أبوه؟ شايفه الخواجة بنايوتي؟ آدي الرجالة ـ راجل ملو هدومه صحيح ـ بس انت مش حتقعدي العمر كله مستنياه ـ ما بيتكلمش؟ إنت لكي لسان. ناوشيه يا بنتي ـ شوفيه طينته إيه ـ »

للوصول إلى السطح المقام فيه الفرح، يمر الضيوف خلال شقة إسماعيل مرسي، فيخرجون من باب مطبخها، ليصعدوا إلى السطح على سلم الخدم الحديدي، غسل البواب درجاته السوداء حتى صارت تلمع في الظلام. صفائح القمامة الموجودة عادة على البسطة، أدخلت الليلة إلى المطابخ، فيئست القطط وصعدت إلى السطح تستكشف إمكانيات العشاء. السطح الواسع مزدان بالأنوار الملونة، رصت فيه الكراسي، وفرشت الأرض بالسجاد، وامتلأت الكوشة المنصوبة في نهايته بسلال الورود. تعلو دقات الطبول، ويصدح صوت الأكورديون ليسمع الحي كله، ويدور السفرجية بالصواني الفضة محملة بأكواب الشربات الأحمر والملبس.
استأذنت ميلو من ثريا ـ أخت العروس، وانسلت خارجة. حاولت ـ فيما بعد ـ أن تحدد ما دفعها لاختيار تلك اللحظة بالذات للخروج، لكنها لم تفلح. تذكر فقط كيف أنها مالت، وهمست لثريا ببعض الكلمات، وتبادلت النظر مع فهيمة ـ وهي تجلس متربعة على الأرض، تتحدث مع خادمات أسرتي العروسين ـ ثم رفعت ذيل ثوبها من الأرض واتجهت إلى السلم.

عند استدارة السلم الحديدي، رأت ميلو رجلًا يصعد في الظلام نحوها. توقفت في مكانها وواصل فيليب الصعود دون أن ينتبه. ثم بدا أنه سمع حفيف فستانها، أو ربما شعر بأنفاسها، فتوقف. نظر إلى أعلى ـ وها هي ترى مرة أخرى تلك الابتسامة التي لا تكاد تظهر على الشفتين ـ إنما تشع من العينين ـ فقط:

ـ «بونسوار»

لم تبد ميلو في عمرها كله مشرقة كما بدت في تلك اللحظة، وهي تلملم ثوبها الذي ينطق بهمس ناعم كصوت أوراق الشجر، وذراعاها العاريتان تضويان على صدر القماش التل الأخضر. التحية التي صدرت عنها رقيقة لا تكاد تسمع. وقف فيليب إلى جانب السلم ليسمح لها بالمرور، فليس من اللائق التلكؤ على السلالم. رفعت ميلو ذيل فستانها وخطت نازلة ببطء، ودقات الطبول تنبض حولها في ظلام بئر السلم. وصلت إلى فيليب واستدارت لتمر بالجنب نظرًا لضيق الدرج ـ ثم توقفت: متقاربان بحيث أحست بصدرها يلمس صدره، وبأطراف تنورتها تحف بساقيه. رفعت ميلو وجهها فنظرت عيناه في عينيها. همست باسمه وتركت يدها قماش الفستان، واستقرت بخفة على خده. الآن، الآن بالتأكيد سوف ـ لكن فيليب ـ وكان مهذبًا فلم يخط إلى الوراء، وقف دون حراك. تراجعت يد ميلو فطارت إلى وجهها ثم إلى رقبتها ثم أمسكت بذيل الفستان وهي تستدير مسرعة ثم تجري على الدرج لتدخل إلى الحمام حيث كانت لطيفة تنزع المشابك من شعرها.

* * *

نظرت ميلو بعبوس نحو الستائر الحمراء وهي تُفتح لتسمح بدخول شابة جميلة ترتدي فستانًا قطنيا أبيض بأكمام قصيرة، وترفع نظارتها الشمسية إلى قمة رأسها، فتزيح بها شعرا حالكا ينسدل إلى كتفيها.

«فرح!» تبسمت ميلو ومدت يديها، فاستيقظت أتينا وزمجرت، وهتفت فرح:

«طنط ميلو!» وانحنت لتحضن كتفي ميلو وتقبلها في وجنتيها.

أخذت فرح مكانها إلى جوار ميلو وطلبت ماءً مثلجًا وجلست تروح على وجهها بعدد من مجلة الإذاعة وتداعب أذني أتينا وتطلق الشكوى المعتادة من الحر وصعوبة ترك السيارة في مكان ملائم:

«تركتها في الأوبرا ومشيت من هناك. ما لقيتش حل غير كدة. وأديني حاروح بعد كدة عند طنط ثريا»

«هي لسة في بيت جدك ـ الله يرحمه؟»

«طبعا. دي من الحاجات القليلة التي لا تتغير، الحمد لله. البيت هو هو، وكل حاجة زي ما هي ـ حتى سرير جدي لسه في مكانه. آه ـ » تتذكر فرح:

«أقوم أسلم على مسيو فاسيلاكس؟ ولا أبقى بازعجه؟»

«لا تتعبي نفسك، لن يعرفك على أي حال. أصبح (تايه) أكثر بعد أن ماتت فهيمة: كان متعود عليها»

«ربنا يديله طولة العمر»

«آه» أومأت ميلو:

«ما هو إداها له فعلا»

سألت فرح في تردد:

«صعب عليكي يا طنط ميلو؟»

ظلت ميلو صامتة، ترقب أصابعها التي استقرت على ظهر أتينا. وقفت فرح:

«سأذهب لأحييه»

لم تلتفت ميلو لترى ضيفتها تنحني على أبيها وتهتف باسمه في رقة. نقل الخواجة عينيه ـ حمراء الحواف، تترقرق فيها دموع دائمة ـ من لوحة الزهور على شاشة التلفزيون ونظر إليها.

«أنا فرح يا مسيو فاسيلاكس. هل تذكرني؟»

أومأ فاسيلاكس بالإيجاب عدة مرات في هزات سريعة، وعاد إلى التلفزيون، يقول:

«لم يغيروا هذه اللوحة منذ ثلاثة أيام. بين كل برنامج وآخر هذا ما نحصل عليه. عندهم لوحات أخرى. عندهم واحدة بها بعض الأشجار ومجموعة من البجع الأبيض. تعرفينها؟» يده المرتعشة ترسم في الهواء علامات البجع والاحتجاج:

«لكنهم يعرضون هذه منذ ثلاثة أيام. الإنسان يمل هكذا..» راقب الأزهار في استسلام متذمر. توقف عم صيام وقال برقة:

«الخواجة بخير يا ست فرح. روحي اقعدي مع ست ميلو، وشوفي عايزة تتغدى إيه .. الفتة حلوة قوي النهاردة!»

«أنا حاكل فتة يا عم صيام؟!»

«وليه لأ؟ أجّلي الرجيم النهاردة ودعيني أنا أنقي لك الغداء»

عادت فرح إلى مجلسها. غطت أتينا في النوم، ورفعت ميلو بصرها وابتسمت:

«قوليلي يا شيري، كيف حال ماما؟»

«الحمد لله» قالت فرح:

«جاءني منها جواب من يومين. أعتقد أنها سعيدة حيث هي. بعيدة عنا جميعًا»

«خسارة، بقاؤها بعيداً هكذا .. خصوصا الآن، وأنت محتاجة لها»

«فعلا. ساعات كتير أحس إني عايزة أتكلم معاها ـ لكن طنط ثريا بتساعدني جدا، وأنا الحقيقة بارتاح في بيت جدي، الله يرحمه، أكتر من أي مكان تاني »

«كنت دائما طفلة ثريا الحبيبة»

«ألن تتناولي طعام الغذاء أم ماذا؟» وقفت فرح، وكان مسيو فاسيلاكس واقفًا أمامها، يوجه الكلام إلى ابنته:

«إذا كنت لن تأكلي، قدمي لصديقتك شيئًا على الأقل»

نظرت فرح إلى ميلو وأجابت بسرعة:

«عم صيام سيحضر لي الغذاء حالًا. ألن تشاركنا يا عمي؟»

دار الخواجة بعينيه، يبحث عن السفرجي، ويغمغم:

«خلاص. لا فائدة منه، هذا العجوز، أصبح خرفا»

أحضرت فرح كرسيًّا من المائدة القريبة:

«تفضل يا عمي: اجلس معنا»

إنها الآن بين ميلو وأبيها الذي عاد يكرر:

«أين طعام ضيفتك؟»

اختلست فرح النظر إلى وجه ميلو الجامد، وتصاعد داخلها القلق: صدى صوت جدها، إسماعيل مرسي، النبرة التي طالما سمعته

يستخدمها مع الابنة التي عادت لتعيش معه، تعتني به وترعاه، والتعبير على وجه ميلو هو ما رأته مرارا على وجه طنط ثريا.

ظهر عم صيام:

«أيوة كدة يا خواجه» أشرق وجهه الأسمر بابتسامة واسعة:

«اقعد مع السيدات وأعط التلفزيون إجازة. هو فيه حاجة غير الكلام الفارغ؟ وكله متكرر على أي حال»

وضع الأطباق أمام فرح:

«حاروح أجيب زجاجة النبيذ للخواجه. خذي كأسًا معه يا ست ميلو»

هزت ميلو رأسها بالرفض. وضع صيام الزجاجة والكأس المملوء إلى النصف على المائدة:

«تفضلوا بالهناء والشفاء»، ابتسم لفرح:

«آنستينا ونورتي المحل!»

«وماذا عنك ياصغيرتي؟» داعبت ميلو رأس أتينا، وواصلت الحديث وكأنه لم ينقطع:

«هل أنت ـ أيضًا ـ تفضلين الحياة بمفردك؟»

«ياه يا طنط ميلو» تنهدت فرح وهي تتناول قطعة من الكوسة محشوة بالأرز والخلطة: «صعب قوي الحياة هنا كسيدة مطلقة. لم أدرك أنها ستكون صعبة هكذا»

«علشان، يا شيري، مال كيش بيت لوحدك»، رفعت ميلو يدها عن أتينا لتربت على يد فرح: «لما يبقى عندك شقة سيكون الأمر مختلفًا»

«ولكني لن أكون في شقتي الخاصة أبدا» وضعت فرح شوكتها على المائدة في حركة يائسة.

«لكنك اشتريت شقة بالفعل»

«أيوة. لكن صاحب العمارة لم يبدأ في البناء بعد. الموضوع كله على الورق. وإذا بدأ غدا لن ينتهي قبل خمس سنوات. أنا عندي

ثلاثين سنة يا طنط ميلو. ثلاثين. الحقيقة أنا لم أفهم أن المسائل بهذه الصعوبة»

«كل حاجة صعب دلوقتي. كل حاجة» قالها مسيو فاسيلاكس، ثم وضع كأسه على المائدة، ومال للأمام ويداه على ركبتيه:

«كل حاجة اتغيرت، الحياة بقت صعبة، صعبة جدًّا»، هز رأسه:

«زمان، كنا نستخدم أربعة عشر صنفًا من الأسماك لنصنع الشوربة. كنت أنتقي السمك بنفسي. بالواحدة. النهاردة ماذا يمكنك أن تجد؟ ثلاثة أو أربعة أصناف بالكثير. مستحيل أن تصنع شوربة سمك على الأصول، خلاص. أبوك يفهم هذه الأشياء. كان يقول لي من الليلة السابقة: خواجه ثيو، غدًا سنأكل شوربة السمك»

«أبي»، قالت ميلو:

« تعرف من هذه؟»

«طبعا أعرفها. بنت إسماعيل مرسي»

«بنت بنت إسماعيل مرسي يا أبي»، كان صوت ميلو خفيضًا.

«عارف، عارف»، أجاب العجوز بنفاذ صبر:

«كنتما دائما صديقتين ـ بالرغم من أنها تزوجت وأنت لم تفعلي»، التفت إلى فرح:

«ابنتك ضروري صارت مادموزيل قد الدنيا؟»

«فرح عندها ولد يا أبي، اسمة آدم، وعمره تسع سنوات» قالتها ميلو، ونظرت إلى فرح التي أضافت:

«تقريبًا. وهو رائع الجمال. كنت سأحضره معي، لكنه يمضي اليوم مع أبناء عمه. إنه حياتي كلها الآن يا طنط ميلو. لا أعرف ماذا كنت أفعل لو لم يكن معي. الحقيقة أنا لا أستطيع حتى أن أتخيل كيف يعيش بعض الناس حياتهم دون أن ـ طنط ميلو» وضعت فرح يدها على فمها:

«أنا آسفة»

«ولا يهمك يا شيري. الكلام ده كله كان زمان» ربتت ميلو على أتينا وحكَّت رقبة الكلبة: «فات. كله فات. قولي لي: ما فيش حد

في حياتك دلوقتي؟ رجل يعني؟»

«رجل؟! أي رجل؟!» كان مسيو فاسيلاكس قد التفت ليشاهد ما يحدث بالتلفزيون، لكنه استدار عائدًا ونبرات صوته ملؤها الشك:

«إنت يا بنتي مش متجوزة؟ إذا كان ميلو راحت فرحك»

لمست فرح ذراع ميلو بلطف وقالت:

«أنا مطلقة يا عمي، لقد تركت زوجي»

«مطلقة، مطلقة: هذا كل ما يسمعه المرء هذه الأيام. الناس لم يعد عندها صبر» هز مسيو فاسيلاكس رأسه في أسف:

«لم يكن يحدث هذا في زماننا. كنا ننتظر. واحد ممكن يغلط، التاني يصبر شوية. واحد يشد، التاني يرخي. الدنيا تمشي. خسارة الفلوس اللي صرفها أبوكي في الجهاز وفي الفرح. ده عمل لك فرح كبير، أنا فاكر. مش بنتي راحت؟ أبوك رجل يعرف الأصول. رجل بحق»

صمت الخواجة لحظات وهو يمص أطراف شاربه ويهز رأسه في حزن، فعادت ميلو تسأل بهدوء:

«الآن يا شيري، احكي لي عن هذا الرجل»

أفاق مسيو فاسيلاكس على الكلمة:

«ابتعدي عنهم. ابتعدي عن الرجال» أخذ يشير لفرح بحماسة:

«أولاد كلب كلهم. الواحد تلاقيه طويل وعريض وشكله وجيه، ومن جوه» أخذ يبحث عن الكلمة:

«من جوه مسوس. زمان، زمان كان هناك رجال. الملك كان ييجي ياكل هنا. وإيدن؛ أنتوني إيدن، كان يأكل على الترابيزة اللي هناك دي، مع الفيلد مارشال مونتجومري. أنتوني إيدن. والملك. والفيلد مارشال» هز رأسه مرات، ثم استدار في مقعده ليواجه التلفزيون.

«ما فيش حد يا طنط ميلو. الرجال القليلون الذين كان يمكن أن أفكر فيهم متزوجون بالفعل. وخلاف ذلك جاءني عرض واحد للزواج، ويا ريتك سمعتيه وهو يتقدم»: أما كونك مطلقة، فأنا على استعداد لأن أتغاضى عن هذا، فأنا في الواقع رجل تقدمي. أف!

عموما، أنا كمان في الحقيقة، مش عايزة أى حاجة ممكن تعمل مشكلة لآدم. كان فيه ـ أقصد كنت أفكر أنه يمكن الوصول لنوع من الترتيب»

«ترتيب؟»

«أعتقد أنه يسمى (زواج مصلحة). سئمت الكلام عن العواطف، أنا أعرف أني لن أق-ع في الحب مرة ثانية. وأنا حتى لا أريد .. أقصد لا أريد أن أحب من جديد. لكني بالفعل أحتاج وضعًا ما. أحتاج مكانًا أعيش فيه»

«عم تتكلمين يا شيري؟ هل هذه نظرية؟ أم أن هناك شخصًا تفكرين فيه؟»

«أنا في الحقيقة لم أعد أفكر. استبعدت الفكرة. ولكن ـ نعم، هناك شخص ما. لكن الفكرة تبدو الآن سخيفة»

«من هو؟ شخص من النادي؟ زميل دراسة قديم؟ ما هو السخيف في الأمر؟»

«لا في النادي، ولا في الدراسة، هو أحد جيران طنط ثريا، ربما تعرفينه؟»

حدقت ميلو في فرح.

«هل تعرفينه يا طنط ميلو؟ مسيو فيليب؟ بنايوتي؟ طنط ميلو؟»

«لا لا أعرفه»

«هم جيران طنط ثريا من زمان، هو طبعا كبير، أكبر مني بكثير، لا أعرف كم عمره بالضبط، بس شكله ليس سيئًا رغم ذلك، ومعاملته لطيفة جدًا، آدم يحبه. لكن ، في الحقيقة، ما جعلني أفكر في الأمر هو الشقة. هذه الشقق القديمة رائعة يا طنط ميلو: السقف المرتفع، الكورنيش في أعلى الحائط، الممرات الطويلة ـ وشقته بالأخص كلها مبطنة بورق حائط من أيام الحرب. مدهش؛ ما زال شكله وكأنه لُصق بالأمس. وهناك أيضًا الأثاث القديم الذي كان لأمه عندما كانت عروسًا منذ آلاف السنين! تخيلي! لكني أعلم أنه من الخطأ التفكير بهذه الطريقة. وعلى أي حال هناك نوع من الخيال في الفكرة كلها. كيف لم تقابليه أبدا يا طنط ميلو؟»

«قابلته، في المناسبات ـ كالأفراح وما إلى ذلك»

«إنه يعيش بمفرده مع نينا، والدته. عنده أخوات. تزوجن ورحلن إلى اليونان. أبوه توفي من زمان، وفضي البيت على مسيو فيليب ونينا، ووجود آدم يعيد إليه الحياة. طنط ثريا تقول إنه يقوم بنفس العمل منذ تخرجه، بعض أعمال المحاسبة البسيطة. هي لا

تتحدث عنه كثيرا. فقط تقول: فيليب لا يتغير. وهذا كل ما في الأمر. أبوه كان عنده محل بقالة كبير، لكنه لم يخلفه في عمله وباع المحل بعد أن مات مسيو يني»

«يني؟ يني بنايوتي البقال العجوز؟» استدار مسيو فاسيلاكس نصف استدارة:

«كان رجلًا طيبًا أيضًا. الله يرحمه. كان مثل أبيك لم نره كثيرًا هنا. لكن ميلو كانت تشتري منه كل ما نحتاجه من البقالة. كان عنده محل في بين السورين. كل أسبوع كانت تذهب إلى هناك وتعود بالحاجة في عربة حنطور. كان يعطيها خصمًا طيبًا. للزبائن القدامى. جريج برضه مع بعض. بناته تزوجوا ورجعوا اليونان. وكان عنده ابن. يقولون إنه ولد جميل. ودخل الجامعة. لكننا لا نعرف عنه شيئًا»

«لم تعجبك الفتة يا ست فرح؟» نظر عم صيام بأسى إلى كمية الأكل التي تركتها فرح في الطبق.

«كانت هايلة يا عم صيام، لكن كثيرة جدًّا. أنا أكلت اللحم كله»

«لن ينفع هذا يا ست فرح، لن ينفع»

«وأكلت أيضًا كل الخضراوات» ابتسمت فرح للسفرجي العجوز وهو يرفع أطباق الأكل.

نظرت ميلو إلى فرح وقالت:

«تقولين إنك فكرت في الزواج من هذا الرجل .. هل فاتحك هو .. في شيء؟»

«أنا لن أتزوجه يا طنط ميلو. إنني فقط، يعني، أقلب الأمور»

«لكن هل كلمك هو؟» اعتدلت أتينا محاولة النزول من على حجر سيدتها، لكن ميلو أمسكت بعنق الكلبة في حزم.

«لأ طبعا، لم يكلمني»

«إذن؟»

«لكنه سيتكلم. إذا أردته أنا أن يتكلم»

«لكنه مسيحي أرثوذوكسي»

«يمكنه أن يعتنق الإسلام»

«هكذا ببساطة؟ كيف تعرفين؟ كيف تعرفين كل هذا؟»

«طنط ميلو! المرأة تعرف هذه الأشياء. هناك شيء في عينيه عندما ينظر إلي. عندما نلتقي على درج السلم، أو يعود إلى منزله فيجدني أتحدث مع نينا، ينظر إليَّ وكأن شيئًا مبهرا قد حدث. أنا لم أتكلم مع طنط ثريا في هذا. لكن نادية، خالتي الصغرى، لاحظت، وقالت إنها تعتقد أن مسيو فيليب يُكن لي مشاعر حنان»

«نادية؟ أليست هي الطفلة المفضلة عند أبيك؟» استعاد مسيو فاسيلاكس نشاطه فجأة:

«كان يأتي بها إلى هنا، كان يجلسها إلى المائدة، ويدعها تطلب كل ما تريد. هيه .. دنيا. آخر العنقود سُكَّر معقود؛ كما يقولون. وكيف لي أن أعرف؟ لم يكن عندي غير ميلو» مد يدًا مرتعشة إلى كأسه:

«ميلو. كانت كل شيء عندي. كانت دنياي»

ظلت ميلو ممسكة برقبة أثينا:

«أخبريني» قالت:

«أخبريني. إذا كنت تعتقدين أن هناك رجلًا يُكن لك شعورا معينا ـ لكنه لا يفعل شيئًا ـ لا يقدم ـ وأردت أن تشجعيه قليلًا ـ فقمت بمبادرة: خطوت خطوة لا تخطئ، خطوة لا يمكن لأحد أن يتظاهر بعدم فهمها ـ وهو، هو تجاهلها، تجاهلك. بماذا تشعرين ساعتها؟»

أجابت فرح بثقة:

«هذا لا يمكن أن يحدث»

«ولكن ـ إذا حدث ـ حدث بالفعل؟»

«لا يمكن. ولكن إذا افترضنا أنه حدث ـ أعتقد أنني لن أهتم بهذا الرجل بعد ذلك. لكنه تعبير لطيف ـ ألا ترين ذلك يا طنط ميلو؟»

«ماذا؟ ما هو اللطيف يا شيري؟»

«يكن لك مشاعر الحنان»

«آه»، قالت ميلو:

«الحنان .. نعم .. بالطبع»

تحت التمرين

أواخر الربيع، والبحر يرقد في هدوء. بدأت الأشجار في حدائق الشلالات تعتم وتسكن إلى المساء، أما العمارات العريقة، فأحجارها القديمة الصفراء تضيء ضيًّا خافتًا تحت أشعة الشمس الغاربة. بين عمارتين، يقوم شارع ضيق، تحفه الأشجار، وعلى حائط إحدى العمارتين، لوحة إعلانات، كبيرة، تحمل رسمًا غير متقن لسرير ضخم، عليه مرتبة عارية، وعلى المرتبة، ترقد امرأة في وضع إغراء تقليدي: ترقد على بطنها، وساقاها مرفوعتان، والقدمان مشبوكتان عند الكاحل. تتكئ المرأة على مرفقيها، وتبتسم لسماعة التليفون السوداء التي تمسكها بيدها. يتدلى من السماعة سلك لا يتصل بشيء. يدها الأخرى تعبث بخصلة من شعرها الأصفر. ترتدي ثوبًا مقلمًا أزرق في أبيض مفتوح الصدر، وحذاء مفتوحا بكعب عال، تربطه أشرطة رفيعة، وفوق رأسها، كتبت عبارة بالإنجليزية تقول: «أنا دائمًا أفضل دنلوب»

وفي الطريق، بجانب بركة مياه ضحلة، وقف صبي ضئيل الجسم يحملق في الصورة. أسمر البشرة، يرتدي بنطلون بيجامة أخضر باهتا، وتيشيرت من النايلون البني، وفي قدميه صندل بلاستيك، يحدق في هذه الرؤية الجميلة الشقراء بفم نصف مفتوح وابتسامة مبهورة، حتى إنه لا يسمع نفير السيارة، ويضطر التاكسي أن ينحرف بشدة ليتفاداه أثناء دخول الشارع، فيطرطشه بالوحل، ويطل السائق برأسه من النافذة:

«اصح يا حمار يا بن الكلب. مش سامع الكلاكس؟»

يدير الولد رأسه عن اللوحة ويتبع التاكسي ببصره، ثم يبدأ في السير. يسير قاطعًا الطريق المشجر الضيق، وعندما يصل إلى الشارع الرئيسي، يستدير جهة اليمين، ويمضي غربًا مبتعدًا عن المنطقة الراقية من الإسكندرية تجاه منطقة الميناء حيث تحتشد المنازل العشوائية وتتكاتف وتتلاصق، وحيث تعبق الشوارع برائحة السمك والتراب.

في مطبخ فسيح، يغمره النور، ويلمع بالنظافة، تقف امرأة بدينة، ترتدي جلبابا بلديا مشجرا. تقف بجانب الحوض تجفف أدوات المائدة الفضية. تضع كل سكينة، وكل شوكة، وملعقة،بحرص، في درج، مفتوح، مبطن بالجوخ الأخضر، ومقسم إلى خانات. عندما تنتهي، تغلق الدرج، وتنشر منشفة الصحون لتجف، ثم تتجه إلى باب المطبخ، وتأخذ الثوب الأسود الطويل الفضفاض المعلق وراءه، تدخل فيه رأسها وذراعيها، ثم تنزله على الجلباب المشجر. تفرد طرحتها السوداء، وتلفها حول رأسها، ثم تنحني لتلتقط الشبشب من تحت الثلاجة، تحمله تحت إبطها، وتسير حافية، على قدميها الغليظتين، إلى الطرقة. تدلف إلى حجرة جلوس، ظليلة، أنيقة، ذات أبواب عالية، تؤدي إلى شرفة منسقة، تطل على البحر. نثرت ـ على البساط الأبيض ـ عرائس، ولعب، زاهية الألوان، وفي كرسي فوتيه أخضر، جلست سيدة شابة، ترضع طفلها الصغير.

«عايزاش حاجه تانيه يا ست نادية؟»

ترفع السيدة وجهها المبتسم:

«خلصتي يا أم يسري؟»

«أيوه يا ست نادية»

«طيب شكرًا، ما فيش حاجه تانية. حتجيبي بدنجان أبيض معاكي بكره؟»

«إن شاء الله»

تخفض السيدة بصرها إلى رضيعها، ثم ترفعه وتسأل:

«ضهرك عامل إيه النهاردة؟»

«الحمد لله، أحسن. بس برضه كل شويتين كده أحس بنغز»

«خليكي على العلاج. اوعي تهملي فيه»

تومئ أم يسري موافقة:

«عارفة يا ست نادية»

«طب مع السلامة بقى علشان تلحقي»

«خليتك بعافية»

في منتصف الطرقة تسمع أم يسري النداء فتهرول عائدة:

«نعم؟ نعم يا ست نادية؟»

«بقول ابنك لقى شغل ولا لسة؟»

تلوح بيدها الطليقة يائسة:

«يسري؟ أبدًا»

ثم تضم يديها على بطنها وتشرع في شكواها المفضلة:

«ده أنا غلبت يا ست نادية، غلبت. وديته عند كهربائي قعد تلات أيام وروّحوه، قالوا ما يلزمناش، ونفس الشيء في ورشة الميكانيكا، مخه مش في الشغل، تقولي لا مؤاخذة غبي ـ بس في المدرسة كان ماشي كويس»

«إنت كان حقك تسيبيه في المدرسة. مش كان زمانه بيتعلم؟»

«حيتعلم إيه بس يا ست نادية؟ يتعلم يبقى أفندي؟ ما تآخذينيش.. الأفندية الأيام دي مش لاقية تاكل ـ أنا عايزاه يتعلم صنعة»

«هو عنده كام سنة؟»

«أربعتاشر سنة، عقبال ما تشوفي ابنك»

«ياه ـ ده أنا كنت فاكراه أصغر من كده، بس هو شكله ولد لطيف، وعاقل»

«كتر خيرك يا ست نادية، ده من كرمك. والنبي حكالي: قال لي يامه دخلتني، وقعدتني، وأكلتني»

«إسمعي يا أم يسري: مسيو منير ، الكوافير بتاعي، بيدور على صبي يشتغل في الصالون. حيبتدي بتنضيف المحل والحاجات دي، بس لو قعد أهو حيتعلم. البقشيش كويس، وانت عارفة الكوافيرات بتكسب دهب. إيه رأيك؟»

«ومالـه؟ مانا جربته في شغل الرجالة ما نفعش، يمكن ينفع كوافير»

«خلاص. اتفقنا. هاتيه معاكي بكرة، وأنا حاخده يقابل مسيو منير»

«ربنا يخليلك ولادك يا ست نادية. حنودي جمايلك فين»

«أم يسري، ما تخليهوش يلبس بنطلون بيجامة ـ هو ما عندوش حاجة تانية؟»

«أبدا وغلاوتك يا ست نادية أنت عارفة الحال: أخوه الكبير سارقنا كده عمال على بطال. واد شبيح لا مؤاخذة، مجرم»

«طيب، طيب. هاتيه بس معاكي وأنا حاتصرف»

أغلقت أم يسري الباب خلفها بهدوء، وهبطت السلالم في تمهل. خرجت من المبنى، واتجهت إلى اليمين، ثم انحرفت يمينًا مرة أخرى، إلى الطريق الضيق ذي الأشجار، ولم تلحظ سيدة الدنلوب تبتسم فوقها، بل سارت سيرها المتثاقل غربا، تجاه الميناء.

* * *

في صباح يوم دافئ، من أيام الصيف الأولى، يقف الفتى خارج أبواب صالون رومانس ذي الزجاج الفوميه. يرتدي جينز أزرق، وتيشيرتًا قطنيًّا أزرق فاتحًا، وحذاء ترينر أبيض. ينشر بشاكير كبيرة ناعمة بنفسجية، أرجوانية الحواف: يضعها بحرص على الفواطة، يفرد أطرافها مزيلًا أي كسرة أو تجعيدة. يتطلع إلى الشمس المشرقة: ستجف البشاكير سريعًا. يفتح الباب ويخطو عائدًا إلى الداخل.

يقع الصالون في مدخل شارع صغير مسدود في نهايته، في وسط الإسكندرية. ويستطيع الواقف في مواجهة الصالون ـ إذا اشرأب قليلًا ـ أن يرى البحر. في نهاية الشارع ورشة للسيارات، تقف حولها عربات عديدة، مكشوفة الغطاء، ينكب عليها رجال وصبيان في ملابس العمل المشحمة. يضم الشارع كذلك جمعية تعاونية، ومقهى يخدم كلا من الصالون والورشة. ولا بد أن الصبي لاحظ كل ذلك عندما حضر إلى الصالون لأول مرة، ولكنه اليوم لا يرى شيئًا من هذا، فهو مشغول تمامًا بعمله في صالون رومانس.

في الداخل، يقف قليلًا حتى يعتاد الضوء الخافت، ثم يواصل طريقه خلال جلبة الأصوات وصليل الأدوات، حول موائد التسريح البيضاء المقوسة، إلى نهاية الدكان. يدفع حبات الخرز الفضية والذهبية المعلقة كستارة، وفي الأوفيس يلتقط الصينية النحاسية من مكانها في الركن، ويعود إلى الصالون. يطوف جنبات المكان في هدوء، يجمع فناجين القهوة، وأكواب الشاي الفارغة. وفي الشارع، ينقلها إلى صينية مستهلكة من الصفيح، يتركها بالخارج ليرفعها صبي المقهى، ويعيد الكرة بعد قليل. تمتلئ المنافض الكريستال بأعقاب السجائر الصغيرة المذهبة التي تحمل آثار أحمر الشفاة، وللمرة المائة يتعجب لقدرة الخالق: فحتى أعقاب سجائرهن جميلة، رقيقة، تبعث شعورا بحنان من نوع ما ..

يجول مسيو منير بناظريه وهو يتجه إلى مكتبه الصغير مع زبونة على أهبة الخروج. كان يومًا طيبًا مليئًا بالعمل. ولكن كل الأيام كذلك في صالون رومانس: كان على صواب عندما أنفق بسخاء على الديكور، فهذا ما تريده السيدات، والسيدات زبائنه، ومصدر نعمته، وهو يعمل على إرضائهن وتنفيذ طلباتهن مهما كانت. وأهم ما تطلبه السيدات، وتتوق إليه نفوسهن، هو التغيير. فترة راحة قصيرة في عالم مختلف، ومثير، وغامض.. ومسيو منير خير من يفهمهن. تساءلت زوجته:

«مظلة من الحرير البنفسجي معلقة من السقف؟ ليه؟»

فقاطعها مزمجرًا:

«خيطيها وبس. لا أطلب منك أن تفهمي»

وتساءل أصدقاؤه:

«مائدتان للتسريح تكونان حرف S في منتصف أرضية الصالون؟ لم؟ وما عيب الطاولات القديمة المتراصة جنبًا إلى جنب على امتداد الحائط؟»

فقال:

«هذا شيء مختلف، وأكثر..» بحث عن تعبير مناسب: «أكثر خصوصية»

الفوتيهات، تحت مجففات الشعر، مكسوة بالقطيفة الأرجوانية، والأرضية سيراميك إيطالي ذهبي وبنفسجي، والمرايا تعطي لونًا ورديًّا خفيفًا. والضوء. الضوء مهم جدًّا، فزجاج الواجهة الداكن السميك يحجب أشعة الشمس، ويحافظ على خصوصية الصالون. الأضواء المركزة تسلط على مناطق العمل الرئيسية، تاركة ظلالًا كثيرة في جنبات المكان، ظلال تسكنها السيدات، تمارسن فيها الهمس، أو الضحك، أو الاسترخاء والاستغراق في أحلام اليقظة. وقد أثمر كل ذلك، فانظر إلى الصالون الآن: المقاعد الأربعة أمام التسريحات مشغولة جميعها، وكذلك اثنتان من مجففات الشعر. مدام نادية عند حوض غسيل الشعر الآن، بينما تجلس مدام عائشة ومدموزيل ميمي ـ وهما في الإسكندرية لقضاء إجازة الصيف ـ تجلسان مع مدام أنجيل في انتظار دورهن، والعاملون كلهم مشغولون، وسيحتاج قريبًا لتعيين عاملة مانيكير ثانية. الصبي الجديد كذلك يبلي بلاءً حسنًا، وقد أسدت إليه مدام نادية معروفًا بإحضاره، فالولد وسيم وهادئ. هادئ أكثر من اللازم. فليكن. السيدات يعجبن به، وهو ذكي ويعمل بجد: المنافض، والفناجين، والأكواب، ومسح المرايا، وكنس الشعر، ومناولة الأدوات. وربما يخرج عن صمته وهدوئه عندما يعتاد على الجو، فما زال ينظر حوله بانبهار.. ها هو يرفع فنجان مدموازيل ميمي فتصيح به: « لأ، لأ، سيبه يا يسري. مدام أنجيل حتقرأ لي الفنجان، موش كده يا مدام أنجيل؟»

رفعت مدام أنجيل حاجبيها الرفيعين:

«أنا موش قلت لك يا شيري إني أفضل الكوتشينة؟»

«لكنك وعدت يا مدام أنجيل: آخر مرة لما كنت عندنا وعدت أن...»

«كنت مستعدة وقتها أقرأ بختك في الورق، وأنت التي غمزتيني وهمستي في أذني «بلاش أمام ماما؟» كانت حتعمل لك إيه ماما يعني؟»

«من فضلك يا مدام أنجيل .. عشان خاطري .. اقرئي الفنجان»

نظرت مدام أنجيل إلى عائشة وتنهدت، ثم حولت نظرها إلى الفنجان الخزف الصغير، ومدت يدها إليه: التقطته، أدارته في يدها، قلبته ..

فتح يسري باب الصالون، ووضع صينية أخرى على الرصيف بالخارج. حواف الفناجين مصبوغة بألوان مختلفة من أحمر الشفاه: وردي وأحمر وبرتقالي ـ عاد إلى الداخل. التقط الفرشاة والمجرفة من الأوفيس، وذهب إلى موائد التسريح ليجمع شعر الزبائن المتناثر هنا وهناك: أهلة سوداء لامعة حيث قصت مدموازيل بوليت شعرها كما تفعل كل شهر، وخصلات كستنائية طويلة تحت كرسي مدام نادية، التي قررت أخيرًا أن تغير تسريحتها تماما، وتقص شعرها ألاجرسون، وهي الآن تستمتع بتدليك منعش لفروة الرأس. جثا لِيَكْنُس الشعر فرآها تمد قدما حافية وهي تغمغم: «هذا أمتع جزء في العملية كلها»

ابتسم بيير مصفف الشعر الواقف خلفها:

«مرسي مدام» ، وشدد من ضغط أطراف أصابعه على فروة رأسها المبتلة. قال في صوت خفيض واثق:

«تدليك بسيط يفيد دائمًا في تنشيط الدورة الدموية»

لم تجب نادية لكنها ابتسمت ناصبة رأسها، وهي تراقبه مثبتة عينيها في المرآة. والآن تحيط كفاه برأسها، أطراف أصابع ثمانية خلف الأذنين، وإبهاماه على قمة الرأس. يضغط بقوة، ويدلك بتؤدة في حركة دائرية. تغمض عينيها ببطء، فينقل أصابعه إلى ظهر العنق.

ما أجملها! منذ أسابيع قليلة كان يسري يعتقد أنها أجمل نساء العالم، ولكن عالمه اليوم مليء بالجميلات من أمثال ست نادية ـ لأ: مدام نادية. وكلهن مختلفات: فيهن الممشوقة ذات السيقان الطويلة، وفيهن النحيفة، وكذلك الممتلئة مستديرة الأعطاف. أما بشراتهن فهذه بيضاء في لون الحليب وأخرى في لون التوفي الذي أحضرته أمه مرة من حفل عيد ميلاد في البيت الكبير. منهن من شعرها طويل، وأخرى شعرها قصير، وكم تختلف تصفيفات الشعر وألوانه المتنوعة. حتى أظافر أقدامهن زاهية ملونة! لم ير

في حياته أظافر قدم مطلية من قبل ـ رأى بالطبع أقدام نساء كثيرة، ولكنها كانت مختلفة. تبدو قدم ست نادية ـ لأ: مدام نادية ـ رقيقة وهي ممددة على السياج أسفل التسريحة .. ناعمة ومطلية الأظافر باللون الأحمر، لو أنه مد يده فقط ـ صاحت سيدة وهي تجاهد لتخرج من تحت مجفف الشعر:

«مسيو منير .. مسيو منير .. هو ما فيش فراخ في الجمعية الأسبوع ده؟ إنت نسيت إني طلبت منك تشتري لي ثلاثة أزواج؟»

تصنعت مدام عائشة التذمر وهي تقول:

« خلاص مسيو منير مش مهتم بنا. طلبت منه أكثر من مرة أن يوصي الميكانيكي في أول الشارع على سيارتي، ولم يفعل شيئا»

وصاح مسيو منير:

«ولكني فعلت يا مدام عائشة: كلمته. ويقول يمكنك إحضار سيارتك في أي وقت وهو ورجاله في خدمتك، وفي خدمة كل زبائننا. تحبي أحجز لك ميعاد في الأسبوع القادم؟»

هتفت ميمي:

«أما فكرة. الواحدة تصلح السيارة وتصلح شكلها»

«الظاهر إن زبائنه حيزيدوا كتير»

«لازم تطلب عمولة يا مسيو منير»

يأخذ يسري كناسة الشعر خلف ستارة الخرز. يرفع غطاء الوعاء الرمادي الكبير، ويلقي فيه الشعر بطيئًا. خصلات متربة مسكينة. رائعة الجمال أثناء تقلبها بين أصابع مسيو منير والأسطوات الآخرين، مذهلة حين تخطو صاحبتها من باب المحل إلى الشارع، تنثر رأسها في خيلاء، وكئيبة حزينة عندما تصل، في النهاية، إلى السلة. أعاد الغطاء، وخرج ليجمع الفوط المبتلة من حول الأحواض.

مرت أسابيع وهو يرقب السيدات، يجلسن في المقاعد الجلدية الناعمة، يلقين برؤوسهن على مسند الرأس المنحدر إلى الحوض، ويرسلن شعورهن تنساب في الأحواض البنفسجية. الأذرع المزينة بالأساور والساعات الذهبية تتدلى إلى جانبهن .. مستسلمة. وراقب أيضا العمال يتخذون موقفهم من الأحواض متأهبين. يمسكون الرأس بعناية فائقة، لا يشوبها قلق أو اضطراب: رؤوس

ثمينة وهشة، ولكنها مألوفة لأيديهم الخبيرة. يدعكون، ويغسلون، ويشدون، ويمشطون، ورؤوس السيدات ملقاة إلى الخلف، لامعة الشفاة، مغمضة العيون. وسمع منهن من تشكو من الماء:

«آه آه .. سخن قوي! برّده شويه!»، أو:

«إيه التلج ده! يا أخي خلي في قلبك رحمة!» وأحيانا، ممسكات بالفوط البنفسجية حول الرقبة بأنامل زاهية الأظافر:

«يوه .. الميه نزلت في ضهري .. خد بالك» ودائمًا يرد العامل بصوت هادئ مؤدب: «حاضر يا أفندم»

اجتازت مدام جابي عتبة الباب:

«إيه ده كله؟ إيه ده كله؟ ربنا يزيد ويبارك. كل الكراسي مشغولة؟ عظيم، ستضطر لفتح قهوة على الرصيف بالخارج تنتظر عليها الزبائن يا مسيو منير، أم يشتت ذلك انتباه جيرانا الميكانيكية؟ هيه .. يسري .. خد علق الجاكيت. خلي بالك: من العليقة مش من الياقة، وإلا عندك شماعة كويسة تعلقها عليها؟ أحسن خذها الأوفيس. لأ، لأ استنى. الله أعلم إنتو مخزنين إيه هناك. خليها هنا قدامي أحسن. هاتها: سأضعها هنا على ظهر كرسي مسيو منير. عظيم. إجر بقى هات لي كوب ماء مغلي من المقهى. كوب ماء مغلي بس. خلي بالك. ماتخليهمش يحطوا فيه أي شيء. معي أكياس الشاي هنا. إجر بسرعة. ياللا. أما الولد عمال يحلو يوم بعد يوم. إنت بتكوي له شعره يا مسيو منير؟»

«أبدًا والله يا مدام جابي: هو شعره كده طبيعي. بيغسله بس بشامبو الصالون ، ويحط البلسم وينشف يطلع كده»

«وسَمَاره حلو، وعينيه تجنن. الواد حيتحسد. لازم نلبسه سلسلة. سلسلة ذهب كده في رقبته. ونحط له فيها حجاب»

علقت عائشة:

«ما تيجي نلبسه حلق يا مدام جابي؟ الرجال بالخارج الآن يلبسون الحلقان، ليس في الأذنين، في أذن واحدة فقط»

«يا بنتي دول اللي لامؤاخذة زي مانت عارفة ـ لا يمكن رجل حقيقي يلبس حلق أبدا»

«والله بيلبسوا. دي موضة. وعلى أي حال طيب ما القراصنة كانوا بيلبسوا حلقان»

«ومن قال إن القراصنة كانوا رجالا؟ دول كانوا يقضون الشهور بدون نساء»

«غصب عنهم. وشوفي بقى لما كانوا بيلاقوا ستات كانوا بيعملوا إيه»

«أيوه ـ بس حياتهم كانت معظمها رجال في رجال»

«وسمك وجمبري»

ضَج صالون رومانس بالضحك، وعادت مدام جابي تسأل:

«رأيك إيه يا مسيو منير؟ مش لازم يسري يلبس حاجه ذهب؟»

ابتسم مسيو منير وهو يرد:

«بس مش حلق. فكرة السلسلة الذهب فكرة حلوة. وأهي على أي حال طريقة جيدة ليدخر نقوده ..استثمار»

«يستطيع ادخار البقشيش»

«ضروري، ما هو بيعطي أجرته كلها لأمه»

«خلاص. نبتدي الاكتتاب. نحط حصالة على الكيس يا مسيو منير ، وكل زبونة تحط له فيها البقشيش، ولما يتجمع المبلغ نشتري له سلسلة ذهبية بدلاية. سيحسده كل صبي في الشارع»

* * *

وفي أكتوبر، نزل المطر. يجمع يسري المناشف من على الفواطة. ازداد طولًا، ويرتدي اليوم الجينز الأبيض الضيق، وقميصا كحليا. القميص أزراره الثلاثة الأولى مفتوحة، وتبرق على صدر يسري سلسلة ذهبية، بميدالية عليها طابع برج الحوت. إنه الآن أسرع وأقل ترددًا في حركته. تتوقف سيارة ميمي الفيات الخضراء أمام الرصيف، فيتقدم، مبتسما، ليفتح لها الباب، ويساعدها على النزول.

تعلق قائلة، وهي ترقب يسري، يحمل عددا من الفوط المطوية بعناية إلى داخل الأوفيس:

« تلميذك تعلم بسرعة يا مسيو منير»

«ولد كويس صحيح، بيقفل المحل لوحده دلوقتي، والصبح بييجي أول واحد. ولد نبيه. وبقاله مدة دلوقتي بيتمرن على الغسيل ـ

بيتمرن في زمايله يعني»

«ما انت لازم حتخليه يغسل للزباين؟»

«ضروري. لما زبونة تجيب معاها بنتها ولا حاجة. أو يجيلنا زبون طياري»

«إشمعنى يعني يا مسيو منير؟»

«معقول حنجرب في واحدة من الستات؟»

«ليه لأ؟ أنا مستعدة. وإذا ما عجبنيش، أطلب غيره»

وقف يسري بجانب الحوض ممسكًا بالبشكير. لقد أتى دوره وسيفعلها: سيلمس واحدة منهن. مدموازيل ميمي ذات الشعر البني الفاتح، والأرداف العريضة والكاحل الرشيق. راقبها وهي تستقر في الكرسي، ثم انحنى ولفَّ البشكير حول كتفيها في عناية. رفعت هي يديها مبتسمة، ودست البشكير داخل ياقة قميصها التركواز. رفع شعرها الطويل بكلتا يديه، وأراحت هي رأسها على حافة الحوض، وأغمضت عينيها. ثبت قدميه، مباعدًا بينهما، واستدار إلى الدش. اختبر المياه على يده، معدلًا حرارتها، حتى جرت دافئة دفئا لطيفا، ثم تركها تنساب لفترة حتى تأكد من ثبات الحرارة، ثم بدأ يبلل شعر ميمي. أمسك بالدش فوق رأسها، مطوقا، برقة، جبينها بيده، حتى لا تنساب المياه على وجهها. بعد فترة، نقل الدش إلى مؤخرة رأسها. باعد ما بين خصلات شعرها المبتل، زج بالدش بلطف تحت الخصلات، وهزه هزات خفيفة حتى تأكد من تخلل المياه الشعر كله. أعاد الدش إلى الحوض، وصب قدرًا من الشامبو البارد في يده. انتظر قليلًا حتى تنتقل حرارة جسده إلى السائل، ثم دعكه بين يديه برفق، ومرره على الشعر. بدأ في الغسيل: دلك فروة الرأس، ورفع خصلات الشعر، ودلكها بحرص، ثم تركها. التقط الدش، وشطف الشعر، ثم عاد إلى الشامبو مرة أخرى. وفي هذه المرة، استثار الشامبو في الشعر، حتى كون رغوة وفيرة، فصارت أصابعه تدخل وتخرج في الشعر الزلق بسهولة. دلك مقدمة الرأس، وظهرها، وكذلك الجانبين، ثم الظهر مرة أخرى. رأى أصابعه تظهر من بين رغاوي الشامبو التي تكسو الشعر، وتتجه نحو أذني مدموزيل ميمي. وجد إصبعيه الوسطيين فتحتي أذنيها، فتحسسا طريقهما عبرهما بفضول ورقة. وجد نفسه يضغط بجسده على ظهر الحوض. البشرة خلف أذنيها ملساء متناهية النعومة، تكاد لا تصدق أن فيها حماية كافية لهذه العظام الهشة الملموسة. ضغط، فانزلقت أصابعه إلى ذلك الأخدود الصغير وراء شحمتي الأذن الدقيقتين. انحنى إليها وقال:

«أسيب الشامبو على الشعر شوية؟»

همست ميمي دون أن تفتح عينيها:

«أيوه»

لملم الشعر، وجمعه على قمة الرأس، في رغوة واحدة كبيرة. وببطء، وحنان، جفف جبهتها، وخديها، بنتفة من القطن الأبيض، ثم اتجه إلى الأوفيس.

اتكأ على الحائط ودس يديه في جيبي الجينز الأبيض. لم يعرف مثل هذا الشعور من قبل. وكأن الدماء قد صعدت إلى رأسه، فتركت ساقيه واهنتين، وغيمت على عقله. كيف سيواصل يومه؟ هل يلحظ الجميع ما جرى له؟ جرى له شيء رائع. أكثر روعة من أي شيء حلم به أو سمع أو قرأ عنه في حياته. ولكن عليه العودة .. يجب أن يعود إليها، فهي بانتظاره. اعتدل، وسحب يديه من جيبيه، وخرج إلى الصالون، واتخذ موقفه خلف الحوض.

فيما بعد، وهي تمسك بالبشكير البنفسجي حول رقبتها، خاطبت ميمي صورة مسيو منير في المرآة:

«الولد كوافير بالفطرة، فعلا حاسس بالشعر»

ابتسم مسيو منير وهو يلف الشعر المبتل على الرولو الوردي الكبير:

«الحمد لله، قلبه في المهنة»

نادت عاملة المانيكير:

«يسري .. إملا حوض البيديكير لمدام جابي»

ملأ يسري الوعاء البلاستيك بالماء الفاتر، وأضاف قطرات من الشامبو، ونقطة من زيت الياسمين، وحمله بحرص إلى الصالون، ووضعه عند قدمي مدام جابي، الجالسة تحت مجفف الشعر. خلعت حذاءها، ووضعت قدميها في الماء، ثم رفعت المجفف عن رأسها، واستدارت إلى الشقراء، ممتلئة الجسم، التي تجلس بجوارها، باسطة يديها على ركبتيها، في انتظار أن يجف الطلاء على أظافرها:

«بتقولي عزم عليها تروح معاه البيت؟»

فأومأت الشقراء برأسها قائلة:

«أيوه! وقال لها بصراحة إن عنده أفلام من إياها ممكن يفرجها لها»

«وبعدين؟»

«ولا حاجة، انت عارفه زيزي تبان رقيقة ومهذبة، بس مينضحكش عليها، قالت له: أروح معاك؟ هو أنا عبيطة ـ أنا سامعة عنك، وعن مزاجك»

«لأ!! وبعدين قال إيه؟»

«ولا كلمة. لونه راح، وادور وخرج. وما رجعش المكتب من ساعتها»

«يا حرام. لأ بجد والله صعبان عليه. أصل مش حاجة غريبة يعني ـ فيه كتير مزاجهم كده، وبيني وبينك يعني الحكاية»

انحنت الشقراء إلى الأمام، ووضعت إحدى يديها على ركبة صديقتها، وهي تحرص على أن تظل أصابعها مفرودة، متباعدة:

«لأ يا حبيبتي لأ. إنت مش فاهمة. قبل، أقول لك معلهش، ممكن. بس بعد لأ. بعد يبقى مجنون، سادي يعني»

غادرت المحل آخر زبونة .. راضية، سعيدة بشعرها النظيف، المصفف.

غسل مسيو منير ومساعدوه وجوههم، ومشطوا شعورهم، ثم انصرفوا في جلبة من خشخشة مفاتيح السيارات والدراجات البخارية، وبقى يسري وحيدًا في صالون الرومانس، ليقوم بآخر مهام اليوم. تلفت حوله: تمتلئ المنافض الكريستال بأعقاب السجائر المصبوغة بأحمر الشفاة، وخصلات الشعر المتربة منثورة على سيراميك الأرضية، والفوط المبتلة ملقاة بإهمال على مساند الكراسي، في حين تفيض الرولوهات الوردية حول السلال، وتنضح زجاجة الشامبو آخر قطراتها الذهبية في الحوض البنفسجي. إعادة ترتيب المحل سوف تستغرق ساعة على الأقل. شعر بنوع من الخواء الغريب: فقد اختفى الآن ذلك الإحساس الدافع الذي غمره منذ العصر، وحل محله شعور بالإرهاق وما شابه الهزيمة. انتهى المطر الخريفي، وخلف مساء عذبا مغسولا. سينظف الصالون في الصباح الباكر، ويعود الآن إلى بيته مشيًا على المهل. سيمشي على الكورنيش. في جيبه نقود ـ فالسيدات قد عدن إلى إعطائه البقشيش نقدًا بعد شراء السلسلة ـ سيتوقف في الطريق، ويأكل ساندويتشا، ويشرب كوبًا من العصير، ويفكر فيما حدث له اليوم.

دار في أنحاء الصالون يطفئ الأنوار. التقط المفاتيح في الظلام، وتحسس طريقه إلى الباب. وقبل أن يصل إليه انفتح الباب. كان عمود النور في الشارع هو مصدر الضوء الوحيد، وكان ضوؤه خافتًا، يحجب معظمه شبح غريب يقف في فتحة الباب. لم ير يسري منه إلا ظلا، ثم تبين فيه الأفرول والحذاء الثقيل، والتقط أنفه رائحة الشحم والجاز، وأدرك أنه أحد عمال الورشة المجاورة.

أيهم؟ هل يعرفه؟ إنه لايعرف أحدًا منهم معرفة جيدة. ولماذا أتى إلى هنا؟ قال يسري:

«يلزم خدمة؟»

خطا الرجل إلى الداخل تاركًا الباب يرتد وراءه، ثم استند عليه فانزلق اللسان في القفل. لم يتكلم. شعر يسري بثقل مفاجئ في معدته، وبتخاذل في ركبتيه. ابتل كفاه، وجف حلقه، ودس يديه في جيبيه. وببطء، خطا الرجل خطوة للأمام، ورفع ذراعه. أمسك بالسلسلة، وارتكنت يده على صدر الصبي، وهو يتحسس السمكة الذهبية بأناة.

السخان

ساد السكون الشقة، لا يقطعه سوى فحيح مستمر يطلقه السخان. هذا السخان الذي لا يلبث من حين لآخر أن يزمجر مشتعلا، ثم يخبو بعد لحظات فيعود إلى فحيحه الرتيب. لم يعتد صلاح هذا الصوت بعد: فمنذ شهرين فقط لم يكن يستطيع الاستحمام إلا بإيقاد الوابور ـ وكان إيقاد الوابور من اختصاص فاتن.

يستيقظ من نوم القيلولة في العصر ويطرق باب حجرة أمه، فيأتيه صوتها الخافت:

«اتفضل يا بني»

يدخل الغرفة المعتمة ليجدها جالسة في فراشها على السرير النحاسي الكبير: رأسها معصوب بمنديل أبيض، تنسدل منه على كتفها اليمنى ضفيرة من شعر لا زال على سواد لونه.

«اقعد يا بني»

على يمين السرير، وبجوار النافذة، كرسيان أسيوطي، يجلس صلاح على أحدهما.

«كيف حالك اليوم يا أمي؟»

دائمًا ما تتنهد قبل أن تجيب:

«الحمد لله .. حنقول إيه؟» ثم تعود تسأل:

«إزي الحال في الجامعة؟»

فيجيبها: «الحمد لله.. ماشي»

تمضي بعض الدقائق في سكون ثم تنادي بصوتها الواهن:

«فاتن .. اعملي شاي لأخوكي»

تحضر فاتن الشاي في أكواب صغيرة مذهبة الحواف ، على صينية مطلية بالفضة، منقوش عليها صورة بيت الله الحرام، وتقدم

لأمها ولأخيها، ثم تضع الصينية على الكومودينو وتلتفت إلى صلاح قائلة:

«أسخن لك الميه ؟»

يومئ برأسه. ويسمعها بعد ذلك في إجراءات إيقاد الوابور. تملأ الصفيحة الكبيرة وتقيمها على النار. تتفقدها عدة مرات. ثم تأتيه في النهاية، قائلة في رقة:

«حمامك جاهز» وتولي مسرعة.

دائمًا ما تتحدث برقة ودائمًا ما تولي مسرعة.

بعد التطهر والاغتسال مما يخلفه اليوم من أتربة وعرق، ومما يتركه النوم من شوائب مستترة، يرتدي صلاح جلبابًا أبيض نظيفًا، وطاقية بيضاء، ويصلي صلاة المغرب. يخرج إلى الشرفة، ويتربع على الكنبة الإستامبولي، فيقرأ القرآن، أو يسبح بأسماءالله الحسنى حتى يسمع أذان العشاء.

الآن، هو يدفع حبات المسبحة بين أصابعه، وشفتاه تتمتمان بأسماء الله في آلية ذاهلة: «الرحمن.. الرحيم.. الملك.. القدوس.. السلام.. المؤمن..» اختل نظامه المعتاد، فلم يشرب الشاي مع أمه ـ غابت عن المنزل تعزي صديقة توفي زوجها. وقد ذهب هو إلى الجنازة في اليوم السابق، ولكن أمه لا تكتفي: فستذهب إلى الليالي الثلاث، ثم إلى الخمسان، فالأربعين، فالذكرى السنوية. وبالرغم من تدهور صحتها عقب موت والده منذ شهور أربعة، إلا أنها ما زالت توفي بواجباتها الاجتماعية ـ وإن كان في إيفائها بالواجبات المتعلقة بالموت نوع من النهم. لم يشرب الشاي مع أمه ـ لكن نظامه المعتاد اختل في أمر أهم: فهو لم يؤد صلاة المغرب، بل هو في الحقيقة لم يؤد أيًّا من صلوات اليوم.

رفع صلاح عينيه. فمن مجلسه، وعبر باب غرفته المفتوح، مارًّا بالصالة الضيقة بما تحويه من مائدة سفرة وثمانية كراسي، يستطيع أن يرى باب الحمام، فيتبين من خلال زجاج الشراعة العالية أن الحمام مملوء بالبخار، كما يتناهى إلى سمعه فحيح السخان. حول صلاح عينيه وحاول التركيز في تسبيحاته: «يا رب .. أستغفرك وأتوب إليك .. يا رحمن..» إنه يُعد بين أقرانه قدوة، والشيخ حافظ، شيخ الجامع، كثيرًا ما يقولها، يقول إنه «قدوة يجدر أن يقتدي بها غيره من الشباب .. زهرة نادرة يخشى عليها في مثل هذا الزمن الفاسد» فلننظر إليه كيف يقضي يومه: ينهض من فراشه مع أذان الفجر ليتوضأ (وحتى وقت قريب بالماء البارد) ويصلي الفجر، ثم يجلس إلى مكتبه ليجهز لمحاضرات اليوم حتى يحين موعد صلاة الصبح، فيؤديها ويصلي ركعتين إضافيتين عليها. يختار ما سيلبسه خلال يومه: لديه ثلاثة بنطلونات رمادية، وستة قمصان بيضاء، وستة أزواج من الجوارب

الرمادية، وزوج حذاء واحد من الجلد الأسود. وفي الشتاء يرتدي بلوفرًا رماديا مفتوح الرقبة. ولديه كذلك حلة كحلية، ورابطة عنق، أزرق في أحمر داكن، من أجل المناسبات المهمة ـ كجنازة الأمس مثلًا.

توقف بصره على الصوان القديم: تحتفظ فاتن بملابسه نظيفة، مكوية، مرتبة .. ولا زر واحد ناقصًا فيها .. وحذاؤه لامع دائمًا .. مع أنه لم يرها أبدًا تقوم بهذا العمل. فقط كلما نظر وجد ملابسه كلها مرتبة في الدولاب. وقد سمع أمه تقول في أكثرمن مناسبة:

«يا بخت من سيتزوجها .. البنت تساوي ثقلها دهبًا.. »

شعر بوخزة ألم في صدره، فخفض بصره بسرعة إلى مسبحته:

«يا جبار .. يا رحيم .. أحمدك على كل شيء .. أحمدك على كل شيء.. »

عاد بذهنه إلى تفاصيل نظام حياته اليومي. بعد ارتداء ملابسه يخرج من غرفته ليجد إفطاره جاهزًا على المائدة بالصالة، يسمي ويجلس إلى الطعام: فول مدمس بالزيت والليمون، وخبز بلدي، وعسل، ثم الشاي التقيل. تكون فاتن قد خرجت لتلحق بأتوبيس المدرسة ـ باب غرفتها مفتوح ـ أمامها طريق طويل ـ بعد الأكل يغسل يديه ويتمضمض، ثم يجمع كتبه، ويذهب إلى حجرة أمه، ليجدها جالسة في فراشها في هدوء. عندما كان أبوه حيا، كان يتناول إفطاره معه، ثم يقبل يده، ويخرج في طريقه إلى الجامعة، أما الآن فيذهب إلى أمه ليلقي عليها السلام:

«تركتك بخير يا أمي»

«في أمان الله يا بني»

بحرص يهبط درجات السلم الحلزونية المتآكلة، يغض من بصره حتى لا تقع عيناه على جارة من الجارات. ثم يخرج إلى وهج الشمس، وإلى تراب الطريق. يحث الخطى حتى ناصية الشارع ليقف في انتظار الأتوبيس. يصل الأتوبيس فيهجم عليه الجمع المزدحم: كل يحاول أن يجد موطئًا لقدمه على السلم الذي ينوء بثقل ما يحمله من أجساد. هو شاب وقوي وغالبًا ينجح في التعلق بالأتوبيس، وقد ينفذ ـ أحيانًا ـ إلى داخله.

الجو في الداخل خانق، والحرارة لا تحتمل. قدم جارك تدهس قدمك، كوعه في بطنك، يفاجئك شذى امرأة قريبة، بل تجد شعرها يداعب أنفك، وجسدها ملتصق بجسدك، ساعدك يحتك في جانب نهدها، أو مؤخرتها تتقهقر لتندفس في مقدمتك. وهو يغض بصره دائمًا، ويجاهد ليحتفظ بجسده محايدًا قدر الإمكان. وعندما يصل إلى الجامعة يحارب حتى يصل إلى باب الأتوبيس، مختنقا بالتوتر،

مردداً: «أعوذ بالله .. أعوذ بالله..» لم يحدث أبدا أن تشاجر معه أحد في الأتوبيس. كثيرا ما يرتفع صوت امرأة غاضبة وهي تصيح في رجل يقف خلفها:

«يا خويا ما تلم نفسك وتبعد إيديك..» أو:

«اتاخر شوية لو سمحت .. إحنا برضه زي إخواتك.. » في حين يغمغم الرجل:

« نعمل إيه بس؟ الله يلعن أبو الزحام .. »

ويتطلع بقية الركاب في انتظار بادرة عراك يشاركون فيه، فيبدد الملل، وينفس عن التوتر. هذه الأتوبيسات هي الجحيم بعينه، والمصائب التي تحدث فيها .. فليكن الله في عون المرأة إذا كانت حساسة أو خجولة، فستمتد إليها عشرات الأيدي .. الحمد لله أن هناك أتوبيس مدرسة لفاتن، فقد منعها من ركوب الأتوبيسات العامة، وحين سألته.

«ليه؟» أجابها ببساطة:

«لأني أعرف ما يدور فيها، ولا أرضاه لأختي»

وتقبلت إجابته كما اعتادت تقبل كل ما يقول وكل ما يفعل ـ برضا، وبدون نقاش. تساءل بينه وبين نفسه طيب ولما تروح الجامعة؟ ساعتها لن يكون هناك أتوبيس مدرسة .

رمق صلاح الزجاج في أعلى باب الحمام .. لا يزال مضاء، والسخان مستمر في الفحيح. لا بد أنها تغسل شعرها الآن، ترفع ذراعيها، تترك الشعر المرغي بالصابون مكوما فوق رأسها، تضع قدمها على كرسي الحمام الخشبي، وتنحني ـ لو أنه سحب كرسيا ـ غاص قلبه إلى قدميه.

«أستغفر الله .. أستغفر الله .. أستغفرك وأستعيذ بك.. أعوذ بالله.. أعوذ بالله» تشبث بالسبحة وحاول جاهداً أن يركز فكره على أسماء الله الحسنى:

«السميع .. البصير.. الحكم ..العدل ..»

كان يجلس في هذه الشرفة منذ شهرين، يجلس مثل جلسته هذه تماما، يسبح بعد صلاة المغرب. كان ذلك يوم بدأ السخان في العمل ـ فقد اشتراه أبوه ـ رحمه الله ـ وتم تركيبه بعد وفاته بشهرين ـ انتهى هو من حمامه، وحين دخلت فاتن تستحم، سعيدة

بالجهاز الجديد، سمع أمه تناديه. وفي غرفتها ـ بعد أن أغلق الباب كما طلبت ـ وكانت جالسة في الفراش كعادتها مؤخرًا والشال الصوفي حول كتفيها ـ قالت له:

«كنت اليوم في بيت خالتك»

سألها متأدبًا:

«وكيف حالها؟»

«بخير والحمد لله .. كلهم بخير» وتوقفت ثم أردفت

«وكلمتني في موضوع .. »

«خير؟»

«ابن خالتك عصام ـ إتخرج زي مانت عارف من كلية طب الأسنان وبيفكر يفتح عيادة، وإن شاء الله ربنا يكتب له النجاح، وزي ما بتقول أختي: مين يستحق يشاركه النجاح أكثر من بنت خالته فاتن؟»

«فاتن؟»

«إيه رأيك؟»

أخذ بالمفاجأة...:

«بس دي .. دي طفلة»

«عندها ١٦ سنة وفي ثانية ثانوي. ممكن نعمل خطوبة على الساكت، بدون أي مساس بالمرحوم، وعلى ما هي تنتهي من المدرسة السنه الجايه يكون عصام فتح عيادته وجهز نفسه وأصبح مستعدا للزواج »

«يا أمي ده كلام مش معقول: فاتن؟ .. فاتن بنت نبيهة! وشاطرة! وكان والدي دائمًا يقول إنها لا بد تدخل الجامعة. ضروري تكمل تعليمها»

«هو إيه التعليم ده كله يا بني؟ البنت مصيرها للزواج والأطفال»

«اطلبوا العلم ولو في الصين ـ وتربية الأولاد مش بسيطة ـ هل تحدثت معها في هذا الموضوع؟»

«فاتن؟ لأ طبعًا. أنا قلت أكلمك إنت الأول»

« طيب بلاش تكلميها ـ دي لسة صغيرة ـ خليها تفكر في دروسها ومذاكرتها ـ الجواز لسه بدري عليه»

تنهدت الأم وقالت:

«إللي تشوفه يا بني. وأهي رخرة مابتطيقهوش. حتى وهما عيال كانوا دايما يتشاكلوا»

استعاد تلك المحادثة وهو جالس على الكنبة وفحيح السخان الجديد يملأ الشقة. كان متأكدًا من أنه على صواب، فأخته صغيرة جدًّا على التفكير في الزواج ـ بالطبع الزواج حماية للمرأة ـ وهي أيضا يتيمة ـ لكنه موجود، وفاتن فتاة طيبة ولا يمكن أن تقع في الخطأ، وهو موجود، موجود لرعايتها وحمايتها وتوجيهها.

عندما سمع صوت باب الحمام يفتح رفع نظره: كان الضوء خلفها. توقفت لحظة في فتحة الباب يحوطها البخار المتماوج، فكان جسدها ظلا داكنا، لا يميز فيه وجها، أما ما نفذ إلى صلاح فكان سهام الضوء تتخلل قميص نومها القطني الخفيف. لحظة، شعر فيها ببخار الماء الساخن ينطلق من الحمام: يلتف حوله، يلعقه، يلذع عينيه، ويلهب رأسه. وتعالى في الشارع صوت هرج ومرج فاستدار يستطلع الأمر ودارت فاتن حول مائدة الطعام فأتت بسرعة إلى حجرته ثم إلى الشرفة واتكأت على السور لترى ما يحدث. كان أناس كثيرون يجرون عبر الشارع وهم يصيحون «حرامي! حرامي!» وأناس آخرون لم يشاركوا في الجري وقفوا على أعتاب محلاتهم أو على الرصيف يشاركون بالصياح. كانت بشرتها مغسولة موردة، ورائحة الصابون لا تزال عالقة بها، وشعرها المبلل النظيف ملتصق برقبتها، تتساقط منه قطرات الماء، فتجري على صدرها إلى أن تتوارى في فتحة قميص النوم. وكانت حافية القدمين. استدارت إليه تسأله:

«شفت الحرامي؟»

كانت تواجهه بعينين واسعتين صافيتين لونهما عسلي مرقط بالذهب، وفمها منفرج قليلًا وهي تنتظر جوابه. وأعادت السؤال:

«شفت الحرامي؟»

أشاح بنظره بعيدًا إلى الشارع.

«لا، لم أر شيئًا» أجابها وهو ينصت إلى صوت قلبه يرتطم بجدران صدره ـ إلى عقله يرتطم بجدران رأسه ـ إلى جسده ـ سألته باهتمام:

«ماذا يفعلون به إذا أمسكوه؟» فأجاب عابسًا:

«يضربونه علقة محترمة ثم يأخذونه إلى القسم»

«حرام يضربوه .. ألا يكفي أن يأخذوه إلى القسم؟»

«هو حرامي ولا بد أن يعاقب. هناك قوانين والناس المفروض لا تتعداها والسرقة ضد الشرع والقانون» وسمع صوته يزداد حدة.

«طيب وافرض إنه فقير ومحتاج؟» التف شعرها المبتل حول رقبتها، ورأى ـ وهي تميل إلى الأمام ـ قطرات الماء تنزلق على رقبتها لتختفي في الظلال بين نهديها. قالت:

«مفروض يعرفوا الأول ماذا سرق، يمكن سرق أكلاً لأنه جائع» ود لو يمد يده ليلتقط قطرة من الماء على طرف إصبعه، ود أن ينحني ليلتقط قطرة على طرف لسانه. قطرة واحدة. بمنتهى الرفق. فلن يلمسها، يريد الماء. الماء فقط. ابتلع ريقه، وتحركت يده على سور الشرفة، وانزاح مرفقه قليلًا فلمس ذراعها وهي متكئة بجانبه، ثم تراجع:

«لا فرق. لقد خالف القانون ولا بد من عقابه»

سكتت. فقد سمعت في صوته نبرة السلطة، وهو أدرى بما يقول. هو أخوها الكبير وفي السنة النهائية في كلية الحقوق، وفي المستقبل سوف يكون محاميًا عظيمًا أو نائبًا عامًّا.

هدأت الضوضاء بابتعاد المطاردة عبر الأزقة والشوارع، واستمر وقوف الناس في حالة من الترقب لا يريدون العودة إلى بيوتهم. تنهدت فاتن ثم انتصبت تبتعد عن سور الشرفة وهي تهمس:

«يا رب مايمسكوهوش» واستدارت عائدة إلى الداخل.

وقف صلاح ساهمًا متصلبًا يتكئ على السور لفترة طويلة. حاميها حراميها: قصة قديمة قدم الدهر. فاتن. كل خصلة لامعة من شعرها المبلل.. كل سنة بارقة في ثغرها المنفرج ..

كل قطرة ماء متساقطة .. ببطء أولًا .. ثم مسرعة على بشرتها الحية الموردة: كلها تضيء وتومض في مخيلته.

تململ صلاح في جلسته المتربعة على الكنبة. فرد ساقيه ومدهما ثم ثناهما تحته. كفي وليقلع عن هذا! وإذا لم يستطع التركيز في حبات مسبحته، فليصرف ذهنه إلى حياته اليومية الطبيعية، إلى الإنجازات المطلوبة منه، إلى أيامه في الجامعة. فهو طالب مجتهد، تعلقت نفسه بدراسة القانون حين رأى فيه محاولة الإنسان أن يمثل نظما أخلاقية مستمدة من إرادة الله سبحانه وتعالى، درسه فوجده منظما ودقيقا وفيه إجابه لكل سؤال. وصل إلى السنة النهائية بكليته، ولديه اليوم طموح أن يُعَيَّن في هيئة التدريس. اعتاد الاجتهاد وكان يقضي وقته بين قاعات المحاضرة والمكتبة. لم يجلس على الكافيتريا ولم يتسكع في الممرات مثل باقي الطلبة. لم يتقرب يومًا للفتيات، إذا حدثته إحداهن كان يجيبها بأدب، ولكنه لم يصادقهن ولم يعرفهن، ولا يجد عنده الرغبة أن يفعل: يبدون في نظره خاليات من النضارة، كالقميص بعد أن يلبسه يوما كاملا فيتهدل وتظهر على ياقته والأساور آثار العرق والتراب. فتيات في الشارع، في الجامعة، في العراء: شعرهن مشعث، ملابسهن صارخة، أقدامهن متربة في صنادل مفتوحة، أصواتهن عالية، وسلوكهن رافع للكلفة. لم تنجح إحداهن أبدًا في إغرائه بمخالفة شرع الله والتحديق فيها أو اشتهائها، ومنذ بلوغه لم يرفع بصره في امرأة من غير محارمه: خالاته وعماته وأمه وأخته. أخته فاتن. كان يراها مختلفة عن كل الفتيات: وجهها بريء في استدارته الطفولية، صوتها حي رقيق، تبرق بالنظافة، تشع منها رائحة الصابون وهي تقوم بأعمال المنزل أو تجلس إلى مكتبها لأداء واجبات المدرسة. لا هزار ولا مناقشة ـ طاعة فقط واحترام وحب. أما هو فقد خالف أمر الله الصريح: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ .. ﴾. ولو أن الشيخ حافظ اطلع على خبيئة نفسه وهو يؤم أصدقاءه في صلاة الجمعة لطرده من المسجد، ولكان له كل الحق، ألا يحمل في قلبه من الدناسة والفحش ما يغضب الله عليه؟! عليه غضب الله. عليه غضب الله حتى يغير ما بنفسه.

رأى نفسه يتلكع في الصالة حتى تمر فاتن ليحتك بها «بعفوية»، وترددت في ذهنه كلمات أمه:

«أنت رجلنا الآن وليس لنا غيرك» حاميها حراميها .. تلمس أصابعه يدها وهي تناوله كوب الشاي .. أصبح مثل ركاب الأتوبيس المتلصصين. أمه الراقدة على سريرها النحاسي الكبير بضفيرتها المحتشمة مدلاة على كتفها ـ كيف يفوتها ما يختلج في الحجرة؟ ألم ترى ألسنة اللهيب تنهش رأسه؟ وفاتن .. ألم تشعر بشيء هي الأخرى؟ أم أنها تشعر وتخفي؟ النساء.. النساء .. من الصعب فهمهن، فهن ناقصات عقل ودين. هل يمكن أن يحس هو بكل هذا، وهي لا تحس بشيء؟ ربما تحس فاتن بمثل مشاعره ولكنها تخفي أمرها .. ولكنها تبدو بريئة .. تبدو مفتوحة وصريحة .. ووجهها .. عيناها عينا طفلة .. مشدوهة، محبة، مطمئنة. لا، ليس عندها أسرار تكتمها أو أفكار تؤرقها أو مشاعر تخجل من التصريح بها ـ ولكن من يدري؟ من أين له أن يجزم؟ كيف يمكنه ـ في النهاية ـ أن يعرف ما يدور برأسها؟ يعرفه معرفة اليقين.

ليلة أمس ـ عقب الجنازة ـ أقنعه نفر من أصدقائه المشيعين أن يخرج معهم:

«فلنخرج لنروح عن أنفسنا وننسى أمور الموت والنكد»

قصدوا إلى وسط المدينة، وساروا وسط الزحام، في شارع سليمان باشا، متأبطين بعضهم أذرع بعض، يحدقون في السائرات. جلسوا في شباك الإكسلسيور وطلبوا الشاي وأخذوا يتحدثون بأصوات عالية .. عن الكلية، والدراسة، والأساتذة .. ولكن أكثر كلامهم كان عن البنات. يتحدثون عن بنات الناس، ويعلقون على النساء المارات في الشارع: هذه رفيعة كعصا المقشة لكن انظروا إلى عينيها ينضحان شهوة، وتلك بشرتها بيضاء مهلبية يا قشطة، وأخرى ردفاها كالمطاط، أستك توماتيكي منه فيه ـ ووجد تفكيره رغمًا عنه منصرفًا إلى فاتن مع كل تعليق: يقارنها بالنسوة المارات أمامه، مستحضرًا إياها في مخيلته بكل تفصيل .. ليست في مثل بياض تلك المرأة ـ كلا فبشرتها خمرية اللون، وعندما تسير لا تتمايل كهذه، وعودها .. تنورتها دائمًا فضفاضة فلا يستطيع تخيل حركة الـ ...يغلق بسرعة أبواب تفكيره وتتشبث أصابعه مرة أخرى بحبات المسبحة.

هتف مسعد، أقل الصحاب قربًا إلى نفسه:

«لنذهب عند سوسن. عندها بنت جديدة .. تفاحة .. صغيرة ومنظرها لا تبتل في فمها فولة، لكنها شاطرة تمام. عفريتة!»

تمتم صلاح وهو يمسك بمسبحته «أستغفر الله العظيم» فصاح مسعد:

«قوم يا صلاح .. كف عن هذه التمتمة وقوم معانا»

«تفكرون في ارتكاب الفاحشة وفي معصية الله؟» ضحك مسعد:

«تقدم يا رجل: أهي مرة، جرب وشوف. أليس الزواج نصف الدين؟ وكيف إذن ستتزوج بدون تدريب؟» تدخل صديق آخر:

«دعه في حاله يا مسعد. صلاح ليس مثلنا .. إنه من أحباب الله»

«ماذا؟ أليس لجسده عليه سلطان؟ ثم إنهم يقولون إن أحباب الله هؤلاء في حقيقتهم معلمين، يعلمونك ويعلموني ما لايخطر على البال»

«أنا ماشي» قالها صلاح وقام يهرول في الطريق. لم يحدث أن تجرأ أحد يومًا واقترح عليه مثل هذا. الآن يشعرون بأمره، يَشْتَمون ما به، ظهرت عليه الدناسة وها هو ربه يرسل له تحذيرا، يقول سبحانه:

«أراك يا عبدي، وسوف يراك الآخرون»

أسرع وأسرع في زحام الطريق والمسبحة في جيبه تجري بين أصابعه:

« من شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس ـ يا رب سترك يا رب ـ أعوذ بك ـ أعوذ بك ـ أعوذ بك من شر ما خلقت»

وصل إلى المنزل وصعد درجات السلم ببطء خافضًا بصره. عضلات ساقيه ـ عضلات فخذيه تؤلمه، ذراعاه وقفاه وأسنانه تؤلمه، جاء نفسه صعبا مجروحا. ما الفائدة؟ ما فائدة غض البصر وعدم التطلع إلى الجارات وأنت ترفع بصرك إلى أختك؟ ولكنه حلال .. حلال أن ترفع بصرك إلى أختك. وحلال أن ترغب فيها؟ أن تشتهيها؟ أن تحاول لمسها بجسدك القذر لتلوث طهارتها؟ وكيف لي أن أعرف أنها طاهرة؟ بواطن الأشياء ليست كظاهرها، فهذا وجهي لا يزال صارمًا نظيفًا، ونظرة عيني مستقيمة وبريئة. من يدرك ما يقبع في قلبي؟

فكيف لي إذًا أن أتأكد من أي شيء؟

دلف في صمت إلى الشقة. كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة. الظلام يسود المكان والضوء الوحيد يأتي خافتا من المصباح السهاري بالصالة. قصد حجرته وبدأ في خلع ملابسه. لم يؤد بعد صلاة العشاء. عبر الصالة في طريقه إلى الحمام ليتوضأ، ولم يكن، في الحقيقة، قد فعل ما ينقض الوضوء، لكنه شعر بوجوب التطهر بعد كلام الشباب الفاضح على المقهى. دار حول مائدة الطعام فتوقف أمام باب أخته. كان الباب مواربًا فلم تعتد فاتن إغلاقه في أي وقت. لم تكن لديها أسرار. لمس الباب، فاستجاب صامتا وانزاح مفتوحًا. خطا إلى الداخل. الشيش مفتوح على مصراعيه، ونور النيون من الشارع يضيء الحجرة.

في أقصى ركن من الحجرة كان سريرها، وهي نائمة عليه، متكورة في دفء تحت الملاءة البيضاء. الملاءة القطنية تخفيها بأكملها عدا رأسها. شعرها منثور، وعيناها مغلقتان. انحنى عليها .. ترى هل تستيقظ؟ رائحة الصابون تنبعث من جسدها. سمع همس أنفاسها يتردد خفيفًا على الوسادة. مد يده بحذر. تقلبت في الفراش فاستلقت على ظهرها ليواجهه الجسد ذو الوجه النائم سهلا متاحا تحت الملاءة البيضاء. تراجع خطوة وعيناه معلقتان بتضاريسها، ثم استدار وترك الحجرة. جر نفسه جرًّا ليدور حول المائدة ويعود إلى حجرته. نسي الوضوء ونسي الصلاة وألقى بنفسه على فراشه فراح في سبات منهك عميق.

استيقظ على أذان الفجر وقد انتابه شعور غريب بأن شيئًا رهيبًا قد حدث. راودته ذكرى شاحبة لحلم يرفع فيه غطاء ويلمس نهدًا. رأى فاتن تضمه إليها تحت الملاءة القطنية البيضاء وتداعبه حيث يتوق لأن يداعب، ولكنه عندما همس باسمها سخرت منه قائلة «اسمي سوسن. ألا تعرفني؟»

أخذ يطمئن نفسه، ويؤكد لها «ليس إلا حلما .. مجرد حلم»، ثم تذكر: الصلاة. لقد ارتمى على فراشه دون أن يؤدي صلاة العشاء. لأول مرة منذ بلغ وحقت عليه الصلاة يفوته فرض من فروض الله، وها هي صلاة عشاء الأمس قد فاتته إلى الأبد. إلى الأبد، إلى الأبد، فاتته إلى الأبد. دفن صلاح وجهه بين راحتيه وأجهش بالبكاء. دنس، قذر، بليد، منافق:

«وصلت إلى الحضيض. إلى الحضيض وصلت. وليس لي من مُنَجٍّ سواك»

لم يعرف كيف مر به اليوم. خرج من البيت، ومشى في الطريق، وحضر المحاضرات، ولكنه كان غائب الذهن، لا يدرك شيئًا مما يدور حوله .. لم يصغ إلى الأساتذة، ولم يكتب شيئا في كراساته. فاتته جميع صلوات اليوم، فما الفائدة من أدائها؟ بل هو الكفر بعينه أن تصلي وأنت بهذا الدنس. يجب أن يجد حلا. يجب أن يجد حلًّا كي يستطيع الصلاة.

جلس على الكنبة وبيده المسبحة. جلس يذكر الله، ثم انفتحت أمامه طاقة رأى فيها حقيقة واحدة: إنه وفاتن أخته وحدهما الآن بالشقة. أمه لن تعود قبل مضي ساعة أخرى. كان صوت السخان قد خمد .. لا بد أن فاتن تجفف نفسها الآن. تمر بالمنشفة على أجزاء جسمها جزءا جزءا. تنثني لتصل إلى كاحلها، أو ترفع ساقها حتى - إذا استمر على هذا المنوال فمصيره المحقق هو الخسران.. خسران دراسته ومستقبله .. خسران الدنيا والآخرة فيكون من الخاسرين.

فتح باب الحمام فسكب ضوءا وبخارا إلى الصالة، ثم مدت فاتن يدها وأطفأت النور ودارت حول مائدة السفرة ودخلت حجرتها. من المؤكد أنها لا ترتدي شيئًا تحت قميص النوم هذا. ولماذا تخرج دائمًا من الحمام حافية القدمين؟ هل هو اختبار؟ هل يختبره ربه؟ عادت من حجرتها بشعرها ملفوفًا ببشكير وعبرت الصالة إلى حجرته:

«أنا حاعمل شاي. تحب أعمل لك معايا؟»

«لأ»

وقفت لحظة مأخوذة باقتضاب إجابته، ثم غادرت الحجرة في هدوء. وصل إلى سمعه صوت حركاتها في المطبخ، ثم رآها تعبر الصالة: في يدها اليمنى كوب من الشاي، وفي اليسرى ساندويتش. دخلت حجرتها دافعة الباب وراءها.

«الرحمن، الرحيم، العليم، البصير .» لن تعود أمه قبل ساعة. ليذهب إلى المطبخ ويجهز لنفسه شيئا يأكله. نهض من على الكنبة فعدل من جلبابه، ثم دفع قدميه في خفة. سار إلى الصالة ومنها إلى المطبخ، ثم عاد أدراجه، ولف حول المائدة، فوصل إلى باب أخته، ووقف ينتظر. سمع حفيف أوراق. ألا ترتدي شيئا بالمرة تحت قميص نومها هذا؟ دفع الباب ودخل. كانت جالسة إلى مكتبها، مولية ظهرها له، فاستدارت. سار إليها ببطء، ثم وضع يده على رقبتها العارية. ابتسمت له، وشعر بساقيه ترتعدان. نظر إلى

المكتب أمامها، فرأى عليه مجلة مصورة. الصور تحكي قصة ما، والشخصيات تخرج من فمها فقاقيع تتزاحم فيها الحروف اللاتينية. في إحدى الصور رجل يمسك بذراع امرأة، وهي تجاهد وتشد لتتخلص منه.

«ما هذا؟»

استدارت إلى المجلة:

«هذا؟ هذا فرنسي. مدموزيل سناء بتقول إن أحسن طريقة لتعلم اللغة هي قراءة المجلات والقصص. أنا خدت دي النهارده من مكتبة الفصل»

الفتاة، في الصورة، تحاول انتزاع ذراعها، وقد فصَّل الرسام خطوط نهديها بوضوح تام تحت البلوفر. شدد قبضته على رقبتها:

«وما رأيك فيها؟»

«تعجبني .. مسلية وبتخلي اللغة حية أكثر» ضحكت متطلعة إلى وجهه وقالت: «أحسن من حل تمارين القواعد المملة»

قال: «إنت مش فاهمه إن دي مجلات مخلة بالآداب؟ وإنها بتعلم الكفر والفسق؟» ثم علا صوته: «ولك عين وتقوليلي إنها عاجباكي؟»

يده تقبض على أعلى ذراعها فتؤلمها، ويلمس ظاهر أصابعه جانب ثديها، فيسري في يده وخز وتنميل:

«أهذا ما نرسلك إلى المدرسة لتتعلميه؟ لتتعلمي قلة الأدب؟ سأذهب إلى المدرسة غدًا لأعرف ما تهدف إليه ست سناء هذه»

«صلاح .. أنت لم تفهم ..»

هوت الصفعة على خدها الأيمن. دار رأسها وانزلق عنه البشكير فانساب شعرها المبتل حول رقبتها.

«إخرسي. أنا الذي أقول لك متى تتكلمين. حضرتك دايره على حل شعرك، لا أحد يراقبك ليدرك ما وصلت إليه. كل هذا انتهى الآن. سامعة؟ ممكن تخدعي الجميع، إلا أنا. إلا أنا»

تحدق فيه فاتن وعيناها متسعتان، جافتان، فيهزها صائحًا:

«لماذا تبحلقين فيّ هكذا؟ أول مرة تشوفيني، أم لأنك عرفتي إني شايفك كويس؟ عامله نفسك بريئة ومش فاهمه حاجة، دلوقتي

نشوف البراءة دي حتصفصف على إيه »

تنساب نقط الماء على يده من شعرها المبتل. يترك ذراعها ويحرك يده عبر نهدها إلى فتحة قميص نومها وهي جالسة في مكانها بلا حراك. يدور المفتاح في قفل الباب وتخطو الأم إلى الداخل متشحة بالسواد من رأسها حتى أخمص قدميها:

«فيه إيه يا صلاح؟ من أول السلم تحت وانا سامعه صوتك »

يترك صلاح أخته ويستدير إلى والدته. يمر بيديه على عينيه:

«تعالي إلى حجرتك يا أمي» يرتعش صوته:

«عندي ما أقوله لك»

يتبع صلاح أمه إلى حجرتها ويغلق الباب خلفهما.

في غرفتها تنحني فاتن على المكتب، فتضع وجهها على المجلة المصورة، وتشبك ذراعيها حولها، تحتضن جسدها المرتجف.

«تذكرين موضوع عصام الذي كلمتيني عنه؟ هو لسه عايزها؟»

«أيوه يا بني بس هي...»

«فلنزوجها له»

«بس هي .. طب وتعليمها؟ مش إنت قلت...»

«إتعلمت كفاية. زيادة عن كده مش حيفيدها حاجة. أنا ضبطتها اليوم بتقرأ مجلة مشبوهة، وإذا راحت الجامعة حتفسد زي كل البنات هناك. أنا مش عايز أشوف أختي داهنة ضوافرها أحمر وبرتقالي، وصوتها عالي، وعينها فاجرة»

«طب .. نستني كمان سنة لما تاخد الثانوية»

«إذا كانت مش حتروح الجامعة إيه لزوم الثانوية؟ هي حتشتغل؟ لأ. كل ما عجلنا بالزواج كان أحسن» وهدأ صوته وهو يكمل:

«وإذا كانت نفسها تدرس تبقى تدرس في البيت ـ بعدين»

«بس يا صلاح فاتن لسه ما فيش على بالها»

«البنت عدت ١٦ سنة، وده هو السن اللي حدده القانون للزواج، ولا بد فيه أسباب قوية وراء هذا التحديد. هو ابن خالتي مش عايزها؟»

«طبعًا يتمناها»

«إذن انتهينا! الزواج حماية. نعجل به، وتقدر تعيش مع خالتها لحد ما يفرش لها شقة. أنا فكرت في الموضوع كويس، ومتأكد إن ده الصح»

«خلاص يا بني .. اللي تشوفه .. إحنا لنا مين غيرك؟»

«حتكلمي خالتي بكره؟»

«حاضر، دي حتفرح فرحة، وعصام حيطير»

«ربنا يتمم بخير يا أمي»

«آمين يارب العالمين .. إن شاء الله!»

خرج من حجرة أمه، وخطى بثقة إلى الحمام، حيث أدار صنبور الماء البارد.

المولد

إلى نعمات

الميدان المبلط العتيق، والوقت أواخر مايو، والجو مطير. انتشت عائشة بالمطر المنهمر: بالقطرات الصغيرة، السريعة، المائلة، اللاذعة. شكشك المطر بشرة وجهها، يديها، ساقيها. الهواء منعش، والقمر متواري خلف سحب خفيفة في السماء المظلمة، وبلاط الميدان يلمع، وعائشة سعيدة: رفعت وجهها إلى السماء، وتركت شعرها يبلله المطر. اقترب زوجها، ومرة أخرى عرض حماية مظلته، لكنها رفضتها: لم تشأ أن يقوم حاجز بينها وبين السماء والمطر. واصل زوجها السير ـ في جفاف.

كانت هي التي اقترحت أن يتركا السيارة أسفل التل، ويصعدا إلى الحي الشهير عبر مائتي السلمة. لم تعجبه الفكرة. وصفها بأنها غير عملية، فهما يرتديان ملابس السهرة، وهذا يجعلهما عرضة للمضايقات، إن لم يكن للسرقة، كما أن السيارة نفسها قد تقتحم وتسرق إذا تركت في هذا الشارع المظلم، فما الفكرة؟ توقعت هذا الاعتراض، وهي في العادة تبتلع رغباتها وتصمت. أما الليلة، فقد خرجت عن المألوف، وتحايلت عليه قائلة بلطف وهي تحاول استمالته:

«سترى عند انتهاء حفل العشاء، سنستمتع بهبوط كل هذه الدرجات ـ ووقتها، سيكون القمر ساطعا»

أذعن لرغبتها، وأوقف السيارة.

الكاتدرائية البيضاء يلفها صمت عميق. ابتلعهما ظلها من جانب، ثم طلعا من الجانب الآخر إلى ضوء قمر قد انزاح عنه السحاب، والدرج الحجري العريض يتلألأ أمامهما، نزولا إلى الشارع الضيق حيث تقف السيارة، تنتظر. ضوء القمر، والكاتدرائية، والظلال، والدرج الحجري. منظر فريد: وكأنهما جزء من لقطة مبهرة في فيلم ملحمي.

طلعا إلى الضوء. وتسلل خلفهما ظل ضئيل لشخص ثالث، وانسل يلحق بعائشة. وضع يدًا دقيقة، داكنة، على ذراعها، وهمس: «عشرة فرنكات .. بعشرة فرنكات يا سيدتي أقرأ لك طالعك» التفتت عائشة، والتقت عيون سوداء، بعيون سوداء. لكن المرأة الغريبة أرخت جفنيها في الحال. توقفت عائشة عن المشي، فرفعت المرأة يدها عن ذراعها، وأدارت كف يدها ببطء ومدتها مفتوحة. أجابتها عائشة، مدركة وجود زوجها وحده على بعد خطوات، منتظرًا تحت مظلته: «لا، لا .. شكرًا لك» فقالت المرأة بنبرة مختلفة، آمرة: «أعطني يدك اليمنى» مدت عائشة يدها اليمنى، وأسلمتها لليد الممدودة لها. لم تجر المرأة سبابتها على كف عائشة، ولم تهتم برسم تفاصيله الدقيقة، ولم تفعل؟ إنها، بعد اللحظة الأولى، لم تنظر حتى إلى الكف البيضاء التي تمسك بها، بل أبقت عينيها العميقتين مركزتين على عائشة: عائشة الجميلة المتوهجة ضيًّا: «أنت تحملين الظلام يا ابنتي. في الموسم القادم،

عند البداية الجديدة.. ففي البداية نهاية أيضا .. متشابكتان. أنت أردت التواصل .. أردت الذوبان .. كان يجب أن تحذري» انسحبت المرأة فتوارت في الظل، بينما وقفت عائشة تمد يدا مفتوحة للمطر. عاد زوجها إلى جانبها، وأخذ بذراعها ليسحبها إلى تحت مظلته، قائلًا: «تعالي. سيقتلك البرد» وكان يمسك بيده ورقة من عشرة فرنكات لم تأخذها المرأة.

وقتها فقط ـ أي بعد حوالي ثلاثة أشهر ـ أدركت أنا كل شيء.

* * *

مارس

راقبتهما. عاما وراء عام. كانا يتشاحنان، وقل ذلك بمرور الوقت. تعلمت عائشة الحرص: تعلمت الابتعاد عن موضوعات بالذات، تعلمت مداراة الحماس، والتساؤل، والانفعال، والمعارضة، والشجن، والدموع، والفرح ـ تعلمت مداراتي. ليس خوفًا مني، أعتقد، بل خوفًا عليه .. خوفًا عليه مني، وأيضًا رغبة في مواصلة حبه.

في أحد المطاعم تحادثا عن متصوف قديم، وانتهى الحديث بأن صاحت في غضب يائس:

«ولم تعتقد أنك تعرف كل حاجة؟ أفهم أنك تؤمن بالعلم. لم لا تعترف إذن أن ما يبدو خرافة اليوم يمكن اكتشاف تفسير علمي له غدا؟»

أجابها مبتسمًا:

«لا، ممكن يكون فيه تفسير علمي ل-«العين الثالثة»

«إيش عرفك؟ إزاي تكون متأكد إن مش حيكون؟ في المستقبل؟»

هز كتفيه قائلًا :

«كده»

«إذن أنت تعتقد أن كل ما يمكن معرفته خلاص اتعرف، زي ما بتقول باستمرار إنك عملت كل شيء، ومافيش أي داع إننا نعمل، سوا، أي حاجة. يعني إنت بتقول إن مش حيكون فيه أي حاجة جديدة في الحياة. طب عايشين ليه؟ ما نموت بقى. ما نموت وخلاص»

نشجت بالبكاء، وعجب الجميع من تلك الثورة التي تملكتها، وهزتها، وأبكتها، في هذا المطعم الفاخر، وحولها الأحباء. ثم، ماذا يعني ذلك المتصوف القديم لها حتى تبدي كل ذلك الحماس في الدفاع عنه؟

صغيرتي المسكينة الغالية .. لماذا أشعر بالسعادة إذ تشعر هي بكل هذا الأسى؟ يأسها هذا هو ما يدفعها نحوي: ففي لحظات اليأس لا تزج بي بعيدا، ولا تنكرني. ليس ذنبي أن وجودي يسبب لها كل هذه التعاسة: تعاسة لا داعي لها.

أدركت أنها تعي وجودي، رغم أنها وجدت من الأفضل ـ أغلب الوقت ـ أن تتظاهر بغير ذلك، لكني ما كنت لأدعها تستريح: كنت أرقد مستكينًا بأعماقها أياما .. أتوارى في خبايا نفسها ـ ثم ترتطم بي .. أحس بها تتعرفني، ثم تقاومني، لكنها كانت تعرف .. كانت تعرف.

وهكذا، عندما همست مربيتها العجوز بأذنها أنه ربما عمل لها أحدهم عملًا حتى لا تحمل، أصغت. سألتها العجوز.

«مش جايز؟ مين عارف؟ إنت صغيرة، وحلوة، والحظ مسايرك، وتجذبي عين الحسود»

أجابتها عائشة مسائلة:

«ومين في الدنيا يعمل لي عمل يا دادة؟ واشمعنى في الحمل بالذات؟»

أجابتها المربية متطلعة إليها بعينها الواحدة السليمة:

«معمول لك عمل، ولا بد من حله»

هناك عمل، لكنه لن يُحل. كيف يحل وهي لا تعشقه؟ على المرأة أن تعشق رَجُلها. وهي.. هي حين يلمسها تتراجع عنه، وحين يدخلها توصد أبوابها على ذاتها. رأيتهما.. رأيتهما في فراشهما الوثير الناعم، وسط وسائد الريش المطرزة. رأيتها تبعد عينيها عن التلطف البادي على وجهه عندما يحاول، مترددا، استثارة رغبتها، وتنكمش أمام القناع الصارم الذي يغطي ملامحه عندما يستسلم، في النهاية، لشهوته. رأيتها تدير رأسها، توجه نظرها إلى نقوش الحائط، أو إلى زخارف وسادتها. ورأيتهما ـ عندما تلتقي نظراتهما مصادفة ـ يتبادلان ابتسامات متأدبة، كغريبين داس أحدهما على قدم الآخر في حفل في سفارة.

«إنت يا بنتي مش عملتي كل اللي قالولك عليه الحُكما .. مش كده؟ والكشف، والكوي، والدهان .. مش كل ده عملتيه؟»

«أيوة»

«وجوزك. ما هو فات فيه برضه هو راخر. سابهم يكشفوا عليه، ويمسكوه، ويفعصوه، ويعصروه. ولا بد ده كلفه غالي. إنت عارفة الرجال ما تحبش الحاجات دي. إنت عايزاه يشك في روحه؟ الحاجات دي مش كويسة عشانه. لازم تعملي حاجة»

أصغت عائشة إلى مربيتها كما أصغت طوال سبعة وعشرين عامًا. آه يا زينة .. تعتقدين أنك حكيمة .. أنك تعلمين كل شيء عنها: ربيبتك الأولى.. فخرك وقرة عينك. تتسلل إلى داخل البيت في حذر من الباب الخلفي، وسبابتها على شفتيها: «شش! لا تخبري أحدًا يا دادة.. حذاري»

تخلع حذاءها ذا الكعب العالي، وتعطيه لك تخبئينه، ثم تجول بالشبشب ببراءة، تحيي والديها. والداها: ابنتك هي أكثر مما هي ابنتهما. هل كنت تعلمين طيلة السنوات الماضية؟ حان الوقت، وستذكرينها بنا.. بي، وسوف تصغي .. كما اعتادت دائمًا.

«طيب، نقول ما حدش عامل لك عمل .. يمكن انت عملتي حاجة.. ربما زعلتيهم»

«مين؟ زعلت مين؟ إحنا حنرجع تاني نتكلم عن«هم» يا دادة؟ ماحنا سبنا الحواديت دي من زمان»

«إسكتي يا بنتي .. متتكلميش كدة، يسمعوكي، أستغفر الله. دول أقرانا يا حبيبتي .. أسيادنا، ولازم نسعدهم ونرضيهم وإلا يركبونا، وما يسيبوناش نستريح أبدا. إنت عارفة كل حاجة: حكيت لك ألف حكاية وحكاية من وانت صغيرة، وكنت تسمعي ـ وتقولي: عايزة تاني»

حكيمة .. عجوز حكيمة إنت يا زينة .. تفوح رائحة الكزبرة المحمصة زكية ونفاذة من ملعقتك الخشبية، بينما تروح فتاتك وتجيء بين مطبخك وحجرة طعامهما. قولي لها الآن .. قولي لها عن سيدي أبو السعود وزوجته الست حبيبة، فقد أحبت عائشة قصصك دائمًا.

«مش حاقول لك نروح لشيخ بعيد، ومش حاقول لك نعمل زارًا، لكن وماله لما نروح نزور سيدي أبوالسعود؟ حاجي معاكي، نزوره، ونزور الست حبيبة، ونصلي ركعتين، ونطلب منها تفتكرك، ونقول لها إنك محتاجة حتة عيل»

«وكل ده، ماله ومال-«هم»؟»

«بيقيموا حضرة كل ثلاثاء. نروح نشوف. ربنا كريم يا بنتي»

نعم. الله كريم، ويتجلى كرمه في صور كثيرة.

الثلاثاء:

يقع التل الرملي على الحدود بين المدينة والصحراء الشرقية، وهو اليوم شديد الازدحام: عربات محملة باليوسفي الناضج، وعربات للحلوى الرخيصة، والطراطير، والصفارات، والحصالات، والطبل مختلفة الأحجام، والحلي الزجاجية البراقة والبلاستك، والمسابح ذات الشرابات. بائع يجلس متربعا فوق عربة، يروح على الذرة يشويه على الفحم، تحوطه أكوام صغيرة من أكواز الذرة التي لم تفصل عن قشرتها الخضراء بعد. بين حين وآخر، ينتقي كوزا، ينزع عنه قشرته، يضعه برفق على الفحم المشتعل، ويصير يقلبه، وعندما ينضج، ويتلون بلون ذهبي، يلفه في قشرة لا يحرص على أن تكون قشرته، ويناوله إلى أحد الزبائن المنتظرين.

زبائنه على امتداد منحدر التل: نساء بجلاليب سوداء يصطحبن أطفالهن. منتشرات في كل مكان. يجلس بعضهن على الأرض في مجموعات صغيرة يتبادلن الحديث. يأكلن اليوسفي، ويلقين بالبذور، ويرضعن أطفالهن. تزدحم الشابات منهن حول أكشاك الحلي يساومن على العقود الزجاجية. يتمدد بعضهن على الرمال وسط بذور اليوسفي، وأوراق الذرة الخضراء المنتشرة: والطرحة على وجوههن للحماية من الأتربة، والذباب. غارقات في النوم. هنا، لا يوجد رجال سوى من لهم عمل .. سوى الباعة.

من جهة الشمال، يحد الجموع الطريق الواسع السريع، يحتضن الحدود الشرقية للقاهرة، فاصلًا المدينة عن جبل المقطم والصحراء من ورائه، وفاصلًا أيضًا بين مدينة الأحياء ومدينة الأموات. من جهة الجنوب، تقوم أربع خيام ملونة، يتعالى منها صوت دقات الطبول، وحول مداخلها تزدحم النساء ما بين جالسة وراكعة وواقفة. التل يبدأ في مصر العتيقة، بمدافنها المسيحية القديمة، ويقوم ـ على ربوته ـ جامع سيدي أبو السعود جراح القلوب.

ها هما تأتيان: تتسلقان منحدر التل، وتسيران وسط الزحام. تختلط زينة بزحمة النساء في يسر في جلبابها الأسود والطرحة السوداء، أما عائشة، فمن الواضح أنها خفضت من مستوى أناقتها المعتاد: بنطلون بيج قديم نسبيا، وحذاء بدون كعب، وجاكيت خفيف فضفاض، تحته قميص رجالي من القطن الأبيض .. شعرها معقود في ذيل حصان .. لا مساحيق، ولا حلي، ولا حتى ساعة. اختفت السلسلة الذهبية من حول رقبتها، وكذلك دبلة الزواج من إصبعها. تسترعي انتباه النساء رغم ذلك، فيتوقفن ليتابعنها ببصرهن. فخور بها أنا، وسعيد، و ـ نعم .. أنتظر، أتأهب، أستعد، آمل ـ أن تأتي منها اليوم إشارة ـ كلمة، حركة، إيماءة ـ يكون من الصعب أن تحنث بها فيما بعد ـ أن تتنصل منها.

«مين دي؟ إيه اللي جابها هنا؟»

«خواجاية دي ولا إيه؟»

« لأ، لأ. ما شكلهاش خواجاية»

«تكونش صحفية؟»

«إحنا مش عايزين صحفيين هنا»

وفجأة تطول على المربية العجوز المسافة بينهما وبين الجامع، فتلوذ بظل أقرب خيمة إلى يمينها تتبعها عائشة. تقول زينة:

«نزور الشيخ بعدين. تعالي نبدأ بالحضرة»

تشقان طريقهما وسط الزحام في مدخل الخيمة. تربت المربية على ظهور النساء بيدها ـ «عن إذنك .. عن إذنك يا أختي» ـ وهي تسحب عائشة خلفها باليد الأخرى. تدفع عائشة رسم الدخول للمرأة الجالسة على المدخل، ثم تتخذان طريقهما إلى الداخل، تعبران بحرص أجساد النساء والأطفال الذين افترشوا الأرض، وتتجهان إلى ركن قصي. تجلس العجوز على الأرض في حين تظل عائشة واقفة، مستندة إلى جدار الخيمة، عاقدة يديها وراء ظهرها.

الجو معبق بالدخان، تمتزج رائحة العرق برائحة المسك والعنبر والبخور. وهناك رائحة أخرى، حلوة، ونفاذة، تشمها عائشة ولا تتعرف عليها.

تجلس الفرقة بطرف الخيمة: أربعة رجال وامرأة. ليس معهم سوى الطبول والدفوف، وهم الآن في فترة راحة، جالسون على الحصائر يدخنون لفافات التبغ، ويتحدثون، ويراقبون جمهورهم. تنظر عائشة إلى اللفافات، وتدرك أنها تشم رائحة الحشيش لأول مرة. ترصد الفارق بين الفرقة والجمهور.. المرأة تجلس براحتها، ساقها اليسرى مثنية تحتها، واليمنى يستند على ركبتها الرسغ الممسك بلفافة التبغ. ترتدي جلبابا طويلا مشجرا، ورأسها معصوب بمنديل أحمر يظهر غالبية شعرها. أكمامها مشمرة، ومعصماها تغطيهما الأساور الذهبية تعكس أسنانها الذهبية وميضها. تضع ـ إضافة إلى الكحل ـ أحمر الشفاة، وظل الجفون الأخضر. قدماها عريضتان، خشنتان، على أظافرهما بقايا من طلاء قرمزي فاقع.

أرى عائشة تضرب برقة على يد صغيرة انسلت من تحت جدار الخيمة لتداعب كاحلها.

تستعد الفرقة الآن .. يطفئون سجائرهم، ويضعونها في جيوبهم.. يعيدون أكواب الشاي الفارغة إلى سيدة المدخل. يقف رجلان وبيد كل منهما دف، بينما تعدل المرأة صدر جلبابها، وتضبط الطبلة تحت إبطها الأيسر، تنقر عليها عدة نقرات تمهيدية. يدب النشاط في النسوة الجالسات على الأرض، ويبدأن في الصياح بأسماء عدد من الأغاني.

يبتسم أحد العازفين ابتسامة عريضة، فتظهر فجوة في منتصف أسنانه الكبيرة المسودة. يحل عمامته فينسدل شعره على كتفيه طويلا ناعما .. عيناه سوداوان براقتان مكحولتان، وجلبابه رث رمادي اللون، يرتفع عن قدميه بعدة سنتيمترات. ساقيه رفيعتان، بياضهما غير متوقع.

عندما يبدأ النغم، ويتحدد الإيقاع، تنفصل عدد من النساء عن مجموعاتهن متجهات إلى حلقة أمام العازفين. يتركن أطفالهن، يُناولن الرضع إلى أقرب الجارات، يسرن باتجاه الحلقة. تظهر عليهن في البداية مظاهرالحرج أمام العازفين وجمهرة المتفرجين، ثم يتلاشى الكسوف مع ارتفاع النغم وزيادة الحماسة، ليسيطر الأسياد على الموقف، مطالبين بالأجساد التي يتملكونها. تتقافز النسوة، ويتمايلن مطوحات برؤوسهن يمينا ويسارا، وعيونهن مغمضة. يجلس الأطفال على الأرض في سكون محملقين في أمهاتهم الراقصات: تسيب الطرح، تنزلف المناديل، ويتناثر الشعر هنا وهناك. ومع ارتفاع الأذرع ترتفع الجلاليب السوداء، لتظهر من تحتها السيقان الملساء قمحية اللون، بعضها عار محلى بخلاخيل معدنية سميكة، وبعضها يتوارى في سراويل بيجامات مشجرة. كلهن يدبدبن، ويتلوين، ويدرن ـ انظري .. انظري كيف ترقص النسوة، كيف يخضعن لأسيادهن .. انظري، وتأملي، واستوعبي.

يخطر ببال عائشة وهي تجول ببصرها فيما حولها من وجوه ذاهلة أنها في حفل من حفلات باخوس التي قرأت عنها. ترى امرأة ترقص في هدوء .. تستكين أهدابها السوداء الطويلة على خدها الأملس، ويرتسم على إحدى زاويتي فمها ما يشبه الابتسامة. تقطب أخرى جبينها في تركيز، ويرتفع طرف لسانها ليلمس شفتها العليا. تتخذ كثيرات مواقف تضرع مختلفة، في حين تجز البعض على أسنانهن ويتعلقن بشعورهن. تهمس لنفسها في عجب أنها في حضرة الإله الإغريقي القديم، ما في ذلك شك. نعم، غريب أنك قرأت عنها، وأنك في طفولتك وقعت على صور في كتب كبيرة ضخمة، بينما انتظرت أنا .. انتظرت كل تلك السنين .. ثم رفضت كل ذلك، وقررت أنه عالم بعيد، بعيد، اندثر منذ أزمنة سحيقة. بأي حق قررت؟ بأي معرفة؟ والآن؟ هل عرفت؟ أنه هنا. عالم ينتظر، على قيد خطوات منك. هل رأيت؟

تنسل يد صغيرة عبر جدار الخيمة، وتمسك بطرف سروالها. تركل عائشة الجدار ركلة خفيفة، وتبعد ساقها.

يركز أحد ضاربي الدف انتباهه على امرأتين لم يندمجا مثل الأخريات، متنبهتين إلى خطواتهما، في مقاومة للاستسلام. يجمعهما معًا، ويشبك أيديهما. يأخذ في الضرب على الدف، يهزه بين أيديهما صائحًا مع الإيقاع، فلا تلبثان أن تصرخا بدورهما وأيديهما مشتبكة ورأساهما يتطوحان. تحل الطرح، تهبط على الأكتاف. يبلغ الطبل الآن ذروته، وتبدأ الراقصات، وهن يتصببن عرقا، في التعثر والسقوط، واحدة تلو الأخرى. تتلمس بعضهن الطريق إلى موضعهن الأول، ثم يتساقطن منهكات بجانب كومة الأطفال. وتستمر أخريات إلى نهاية الرقصة، ثم يتخذن طريق العودة في صمت، مترنحات، ورؤسهن منكسة. تنهار امرأة وسط الحلبة

مجهشة بالبكاء، فتسحبها أخرى إلى موقع بعيد، تحاول إفاقتها، بينما يعلو الصياح في طلب الأغنية التالية.

تجثو عائشة على ركبتيها، وتتسلل، بحرص، تجاه فاقدة الوعي، حتى تصبح خلفها تمامًا. ترى المرأة التي تعتني بها تميل عليها لتضع فمها على إحدى أذنيها وتصيح «الله أكبر! الله أكبر!» تدير رأسها، تضع فمها على الأذن الأخرى لتعيد التكبير، ثم تشرع في تدليك الصدر اللاهث بإحدى يديها في حين تثبت يدها الأخرى كتفي المرأة. «بسم الله، بسم الله، ارحمها، ارحمها لأجل خاطر النبي، كفاية، شايف؟ يا للا يا خويا، يا للا يا سيدي، سيبها في حالها شوية، ده انت قاسي قوي. والنبي قاسي. مش شايف اللي عملته؟» تتأمل عائشة من حولها من النسوة .. تمصمص بعضهن الشفاه رثاء، ولكن في الحقيقة لا أحد ينصت ـ لا يا عائشة، لا يجدن هذا شاذا ولا مستغربًا. تلك الألفة التي تخاطب بها المرأة الروح الغريبة اللابسة. وانظري كيف يهدأ اللهاث، وتسيل الدموع الملطفة من العينين المغمضتين؟ انظري .. تأملي ..

تتسلل عائشة بحرص عائدة أدراجها، حيث تدفن نفسها وسط النساء، جالسة القرفصاء على الأرض، بجانب مربيتها. أراها تغمض عينيها، وتستند إلى الحائط القماشي.

تبدأ الموسيقى مرة أخرى. وتفتح عائشة عينيها منتصبة على إثر لطمة مازحة من خلف الحائط، لترى وافدا جديدا يقف بالمدخل: رجل .. ولد..؟ لا ـ أرقبها وهي تقرر.. شاب، أقرب إلى الرجل منه إلى الولد. من الواضح أنه لا ينتمي إلى فرقة العازفين، فهو لا يحمل آله موسيقية. يقف وحده، لا يرتدي جلبابا، بل سروالا جلديا أسود، من النوع الرخيص، ينتهي طرفاه داخل بوت بلاستيكي أسود يكاد يصل إلى ركبتيه. يقف بثبات على أرض الخيمة المتربة، وتدل أكمام الفانلة الزرقاء على ما تحتها من عضل مفتول. شعره مجعد، بني اللون، بالغ القصر. يجول ببصره في أرجاء الخيمة بابتسامة واسعة منتشية. تتوقف عيناه على وجه عائشة لحظة، فتتجه الابتسامة لها ـ ثم يتعالى ضجيج وجلبة على المدخل خلفه. يتنحى جانبًا يفسح الطريق. تدفع امرأتان طريقهما في جلبة الزحام. تتعاونان على حمل جسد كبير ساكن في جلباب مزهر يستتر وجهه وراء حجاب.

تتعثر المرأتان في طريقهما إلى الداخل. تلتف أذرعتهما حول الثالثة، ويسحبانها، بحثا عن بقعة خالية، قبل أن تنزلق وتفلت منهما إلى الأرض. يخطو الشاب الواقف بالمدخل باتجاههن، ويضع ذراعيه حول المرأة المحجبة، ليرفعها، ويمضي بها حاملًا ساحبا إلى أقصى أركان الخيمة، بعيدًا عن المدخل، ويرقدها على الأرض. تجلس رفيقتاها إلى جوارها، مغمغمتين بكلمات الشكر، والدعاء له بدوام العافية والشهامة. تروح كل واحدة منهن على وجهها بطرحتها، وتمسح جبهتها وفمها بمنديل رجالي كبير تسحبه من صدرها. تلتفتان إلى الراقدة بجوارهما، تعدلان من وضع جلبابها، وتقيمان رأسها، وترفعان الحجاب من على وجهها. تختلس عائشة النظر: إنها فتاة، لا تزيد عن خمسة عشر عاما، ليست قبيحة ولكن .. شعرها مشعث لزج بالعرق، عيناها مفتوحتان مقلوبتان لا يظهر منهما سوى البياض، فمها فاغر يسيل منه خيط رفيع من اللعاب يبلل جانب وجهها. يتطلع الشاب إليها قائلًا:

«حرام، دي صغيرة» تنحني إحدى المرأتين لتمسح فم الفتاة: «ما يوريكش في غالي يا رب » يرفع عينيه فيلمح وجه عائشة اليقظ المتفرج. ثم يراها تستدير لتركل الجدار القماشي الملون في صبرنافذ. أراه يعبر المسافة إليها، في حرص، ينزل بقدمه في المسافات الصغيرة الخالية، بين النساء الجالسات على الأرض. يصل إليها، فيتوقف. يومئ باتجاه الجدار قائلًا: «العيال بتضايقك؟» يصلها صوته وسط دقات الطبول، ترفع كتفيها في استسلام. يرفع الجدار القماشي وينسلت من تحته إلى الجانب الآخر. تسمعه: «إنت يا واد يا خول يا ابن الكلب» ترمق مربيتها فتراها مغمضة العينين، تهتز مع الموسيقى. يعود بعد لحظة. أما أنا، فأعلم ما يدور برأسها: ليس طويلا، ليس وسيما، وإنما له حضور، له حضور وسط الخيمة المزدحمة. وملابسه .. الجلد الأسود.. آه يا عائشة.. آه .. تبتسم، ويرد ابتسامها في بساطة قائلًا:

«أول مرة تيجي هنا؟»

تومئ بالإيجاب، فصوت الطبول يطغى على أي محاولة لرفع صوتها. يتفحصها قائلًا:

«إنت مصرية؟»

تومئ مرة أخرى: «طبعا» أنتظر السؤال التالي، ولكنه لا يأتي. هل كانت تجيب إذا سألها أين تقطن؟

«ما دخلتيش الحلقة؟»

تهز رأسها بالنفي.

«ليه؟»

لا تجيب، فيبتسم ابتسامة عريضة سائلًا:

«يعني ما عليكيش عفريت؟»

لا تتسرع بالإجابة. تأخذ وقتها ثم تقول .. بجدية:

«مش عارفة»

نتقدم. نتقدم. هذا أفضل كثيرا من جواب ساخر، أو من القطع بالنفي. يسأل:

«زرتي الشيخ؟»

«لأ، لسه»

«طيب، لما تخلصي هنا، أنا أطلعك تزوريه، بلاش تمشي هنا لوحدك، دي حتتنا وما حدش حيضايقك وانت معايا» ثم يكمل حين يراها تتجه بنظرها إلى العازفين:

«أنا مش بتاع زار. شايفاني شكلي كوديا؟»

يفرد قامته ويبتسم ابتسامة عريضة وهو يقول:

«دي ناس لا مؤاخذة وسخة .. حرامية ومجرمين. محسوبك جزار.. أبويا معلم كبير.. هنا في المدبح، وأنا كبير إخواتي، يعني سنة ولا اتنين ويقولولي: يا معلم، والمدبح كله عارفني. أنا باجي هنا عشان باحب الطبل بتاعهم. ده هو ممنوع الرجالة تخش هنا أبدا، بس هم عارفيني، وعارفين إني جدع يعني، ثم أنا عندي إخوات بنات، وكمان .. دي حتتنا»

يصمت برهة، ثم يقول:

«اسمي فرج .. خدامك»

يمد يده. تمد عائشة يدها بدورها، وكأنهما، للعجب، حضور بأحد الحفلات الراقية. تقول:

«اسمي عائشة» ويتصافحان.

«عائشة؟ عيشة يعني؟»

«لأ: عائشة»

يبتسم قائلا:

«طيب. حارجعلك بعدين. بس لازم تفقري قبل ما تمشي، ما هو زي الرقص يعني، انتبهي للأسياد»

يرعش يديه في حركة ضاحكة، ثم يعود يقول ـ مشيرا إلى جدار الخيمة:

«والعيال دي مش حتضايقك تاني. حتشوفي»

عظيم. عظيم يا عائشة. تحضرين زارا. تجلسين على الأرض المتربة. تصادقين جزارًا. جزارا مبتدئا، مشروع معلم. ماذا يقول زوجك في ذلك؟ ماذا تقول الناس؟ أراها تبتسم: لم تحبذ خالتها ذهابها إلى الحضرة. قالت لها:

«بلاش. بلاش يا عائشة .. عشان خاطري .. ما تروحيش. إنت عارفة الدكتور صبحي، زميلي؟ بنته بقت تروح الأماكن دي، وتحضر الزار والحضرة والكلام ده. وبقت تقعد مع الناس دي وما حدش قادر يحوشها، وتفقر، وتطور، وتدوخ، والكلام ده كله. تقع في الأرض كده وتتمرغ في التراب. وفي يوم فاقت من نوبة من دول لقت نفسها متجوزة ـ والله العظيم: مكتوب كتابها. دول عالم أشرار مجرمين. تصدقي جوزوها قزم؟ واحد منهم .. تقرفي تبصيله .. رأسه قد كده .. فاقت، لقته قاعد يبص لها بكل بجاحة، وفي إيده قسيمة الجواز، عليها إمضتها. الدكتور صبحي دفع الألف جنيه من غير ما ينطق.. يشتري بنته..»

تبتسم عائشة مرة أخرى.

منذ زمن طويل لم أر هذه البسمة.

ينتهي لحن، ويبدأ آخر. يبدو أنه اللحن الخاص بسيد إحدى المرأتين اللتين حضرتا ومعهما الفتاة الذاهلة. تستند زينة إلى الحائط وعيناها مغلقتان، محاولة جمع شتات نفسها من اللحن السابق، بينما يتركها سيدها راضيًا، ويرحل في سلام. أرى عائشة الآن تتخذ طريقها بهدوء على يديها وركبتيها تجاه الفتاة الذاهلة. تجلس في مكان خال على الأرض بجانبها. تتحسس جبهة الفتاة بإحدى يديها. رطبة، باردة .. عيناها مقلوبتان .. فكها متراخ .. فمها مفتوح. تلتفت عائشة إلى المرأة الجالسة بجوارها وتسألها:

«من إمتى وهي كده؟»

تتطلع إليها المرأة بارتياب، ولكن عائشة تواجه نظرتها بثبات، ويدها على جبهة الفتاة، فتذعن المرأة وتجيب:

«أربعة شهور واحنا نحط لها الأكل في بقها، وننضفها ونغير لها زي العيل في اللفة وهي، ما شاء الله، عروسة. ربنا يصبر أمها. شافت أيام صعبة قوي»

«ربنا يصبرها .. إنت تبقي خالتها؟»

«خالتها، أيوه، بس دي زى بنتي تمام، ماحنا قاعدين كلنا سوا. صعب، صعب قوي. ده إحنا جايين من البحيرة .. طريق بعيد يعني. يومين واحنا مسافرين. بس أهو، ربنا كريم، وقف لنا ولاد الحلال. يا رب ما نرجع مكسورين الخاطر يا رب. قالوا لنا مش

حيشفيها إلا سيدي أبو السعود جراح القلوب. واديحنا جينا. يا رب ترجعنا مجبورين يا رب»

«زرتوا؟»

«أمال إيه؟ أول شيء. زرنا، وصلينا، ودعينا. ودعينا عند الست حبيبة. ولفينا بالبت سبع مرات حوالين الضريح. أبوها حالف يدبح خروفًا، ويوزعه كله، وده راجل غلبان يعني، على قد حاله. ربنا يعينه. إدعيلنا يا بنتي..»

ترد عائشة تلقائيا:

«ربنا ياخد بيدها ويشفيها..»

ثم تلقي نظرة إلى جسد الفتاة المستلقي أمامها ثم تسأل:

«طب وهو ـ إيه يعني اللي خلى ده يحصل لها؟»

يعاود المرأة الارتياب، ولكن عائشة تنتظر الإجابة: تعرف أن المرأة ستتكلم، فقد بدأت تتعلم. تستدير المرأة إليها، وتجيب، وقد أخفضت من صوتها:

«شافت قتيلاً. اتأخرت في الأرض ليلة، جت راجعة، ماشية في السكة، اتكعبلت زي ما تقولي في شيء تقيل، قام وقعت، وقعت فوقه. طلع ـ بعيد عنك ـ ميت، يا عيني ميت ـ لسه حتى ما بردش. رجعت تجري على البيت وجلابيتها كلها دم ـ واهي من ساعتها على الحال ده»

«ما وديتوهاش لدكتور؟»

«دكتـور؟ وحيعمـل لهـا إيه الدكتـور؟ دي حاجات مش بتاعت دكاترة»

حين تعود عائشة إلى مربيتها تجد زينة تنظر عبر الخيمة وقد ضيقت عينيها:

«الراجل ده دخل هنا إزاي؟ ده مش بتاع زار ـ ده جزار. سايبينه يخش إزاي؟»

يقظة هذه العجوز. يقظة، وسريعة، وحادة.

تتطلع عائشة إليها متسائلة:

«وانت عرفتي منين إنه جزار يا دادة؟»

فرج الآن وسط الراقصات. رأسه ملقى إلى الخلف .. عيناه مغلقتان .. ذراعاه مرفوعتان .. كفاه الكبيرتان مفرودتان، وأصابعه متباعدة، وجسده كله يهتز بقوة. يفتح عينيه للحظة ويبتسم. وجهه يقظ تماما.

«جزار من السلخانة، ما هو لابس لبس السلخانة أهه»

«إشمعنى؟ إشمعنى يعني ده لبس السلخانة؟»

«عشان بلاستيك يا بنتي .. بلاستيك وجلد .. هو إنت ما تعرفيش حاجة أبدا؟ عشان لما يتعاص دم يغسلوه بالخرطوم كده على طول .. دول طول النهار دبيح دبيح؟ في الدم لركبهم. بس إيه يا ختي اللي دخله هنا؟»

لم توجه السؤال إلى أحد بالتحديد، ولكن عائشة تتطوع بالإجابة:

«بيقول بيسيبوه يخش عشان عارفين إنه شهم وجدع - وبيحب الزار»

تصعق العجوز:

«ونت إيش عرفك؟ إنت كلمتيه؟»

«هو جه زعق للعيال ومشاهم .. العيال اللي كانوا بيعاكسوني من ورا الخيمة»

تصمت زينة.

«وبيقول إنه حيطلعنا نزور الشيخ بعدين»

«ويطلعنا هو ليه؟ ماحنا رجلينا حتطلعنا»

«بيقول خطر. بيقول ممكن حد يضايقنا ولا حاجة، وكمان دي حتته وهو عارفها»

تمصمص المربية شفتيها قائلة بسخرية:

«نعم؟ حتته؟ فتوة يعني؟ إحنا ما لناش دعوة بيه. لنا رجلين نمشي عليها»

«ليه بس يا دادة؟ إيه الضرر يعني؟ ده كان مهذب جدا، وكمان خوف الأولاد»

«باقولك ما لناش دعوة بيه»

تلزم عائشة الصمت، فبالطبع لن يعجب فرج دادة زينة.

هذه الرقصة مفعمة أكثر من سابقاتها، والسبب يرجع إلى مشاركته فيها. «ويصيح الجميع: احترسوا! احترسوا! عيناه الناريتان.. شعـره» تقطع عائشة استرسال أفكارها. كفى حماقة. ماله ومالشاعر أجنبي قديم؟ تهز رأسها. يا عائشة .. تعرفين عن الفن أكثر مما تعرفين عن الحياة. هنا الحياة. هنا: تحيط بك، تدوي في أذنيك، ترقص أمام عينيك، تشمينها، تستشعرينها، فتتكورين في حمى مربيتك وتسترجعين الشعر ـ والشعر الأجنبي كمان. وهل كتب الشعراء أشعارهم وهم في مأمن يحتمون؟ تلكزها زينة وتهمس:

«بصي، بصي. حيرقصوها. لا حول الله، بنية صغيرة، ربنا معاها»

تسند المرأتان الشابة الذاهلة، تجذبانها، تحملانها إلى حلبة الرقص، بينما يدخل العازفون في اللحن التالي، الذي يمكن تمييزه الآن. تصيح إحدى النساء:

«بترد عالدقة ياخواتي! بترد عالدقة! رحمتك يا رب!»

لا زال رأس الفتاة ملقى إلى الخلف، وقدماها تجران في الأرض، وجسدها يرمي بثقله كله على أذرع أمها وخالتها. تتسارع الموسيقى، ويدنو ضاربو الدفوف منها. تلزم النساء الأخريات طرف الحلقة حتى تسمحن بأكبر مساحة لهذه المجموعة الصغيرة. لا تكتفي الأم والخالة الآن بإبقاء الفتاة واقفة، وتحاولان تحريك جسمها مع إيقاع الموسيقى. تسندها الخالة تمامًا مثلما يُسند السكارى في الأفلام التي شاهدتها عائشة: ذراعها حول وسط الفتاة، وذراع الفتاة حول كتفيها. تحاول القفز بها، ولكنها لا تستطيع سوى اهتزازات وتمايلات بسيطة تحت ثقل الفتاة. يميل رأس الشابة إلى الأمام ويستلقي على كتف الأم التي تساندها من الجهة الأخرى. تتصاعد الموسيقى، وتتصبب المرأتان عرقًا وهما تكافحان. لم يعد باستطاعتهما المواصلة، ويبدأ جسمها في الانزلاق من بين أيديهم. فرج الجزار، الواقف عند المدخل، يتقدم نحوهن. مرة أخرى ينحي المرأتين جانبًا، ويلتقط الفتاة من خصرها ويعاود إيقافها. يرقص بها. يرقص بها، يحركها، يهزها، في حين يضرب العازفون بالدفوف فوق رأسها، ويصيحون في أذنيها. يثب في الهواء ويأخذها معه، يثب، ويدور، ويهزها فيتحرك رأسها يمينًا ويسارا، ثم يقوم. لا تزال متأرجحة وغير ثابتة، ولكنها في حال أفضل بالتأكيد. وأمام عيني عائشة، عينين حشدت فيهما تركيزها كله، تغمض الفتاة عينيها، وتعتدل قدماها، الحافيتان، المدملكتان، فتتحسسان موقعا ثابتا في الأرض. تقرع الطبالة طبلتها، وتنشد مع دقاتها أغنية صاخبة نشوانة. تزداد

حماسة ضاربي الدفوف فيدورون ويثبون ويصيحون. والراقصات الآن راحت منهن الطرح ومناديل الرأس، وحتى ضفائرهن حلت، لتطير شعورهن شعرة شعرة متحررة في الهواء. وفي مركز الحضرة، بين ذراعي الجزار، تحايل الفتاة سيدها المنزعج، فيتصالح، ويهدأ.

أعايش هذه القصة مرات ومرات في انتظار عودتها إليّ. هل كان يمكن أن تسير الأمورمسارا آخر؟ هل كان عليَّ وقتها أن أدفعها ـ أن أجبرها أن ترقص لي؟ شعرت أنها ستقاومني، وأن الوقت لم يحن بعد. انتظرت طويلًا، ولم يكن يضيرني الانتظار لفترة أخرى. ثم التقت هي بفرج الجزار.

تخرج عائشة ومربيتها من باب الخيمة، فتجدان الهواء خفيفًا منعشًا بعد ثقل رائحة العرق، والدخان، والبخور بالداخل. تظللان العينين من ضوء الشمس المنعكس من رمال الأرض البيضاء، وتصلهما جلبة الأصوات متفرقة، وأقل كثافة. تبدآن في الصعود إلى قمة التل: إلى الجامع. تستشعر عائشة في عينيها حرقانا خفيفا، وفي رأسها مساحات خالية مضيئة، وكأنها قد شربت كأسا من النبيذ، ركبتاها ترتجفان قليلا، ودادة زينة تتكئ عليها بثقلها كله. يلتف حولهما أولاد كثيرون، مطلقين الضحكات والتعليقات، تزداد جرأتهم بسبب الإرهاق البادي على المرأتين، فيقتربون أكثر ويمدون أيديهم: يلمسون يد عائشة، ويشدون ملابسها.

«حد شاف فرج الجزار؟»

كان للسؤال مفعول السحر:

«أيوة، أيوة. حاروح أناديه»

ينطلق سرب من الأولاد الصغار، يتسابقون إلى الخيام، في حين لا تنبس زينة ببنت شفة. تسأل بعد برهة:

«هي الساعة كام؟»

تهز عائشة كتفيها قائلة:

«مش قلتي ما اجيبش ساعتي؟ أهي تطلع حوالي أربعة»

«أربعة؟ ده إحنا لازم نستعجل. هو البيه مستنظرك إمتى؟»

«أنا ما قلتلوش حاجة»

ترفع زينة رأسها لتحملق بعينها في وجه عائشة:

«إزاي يعني ما قلتيش حاجة؟»

«خرج بدري ـ ما لحقتش أتكلم معاه قبل ما يخرج»

«وناوية تقوليله؟»

«إني جيت هنا؟ لأ، لأ يا دادة. حيقول علي عبيطة»

«عبيطة؟ مين يستجري يقول عليكي عبيطة؟» أدركهما فرج الجزار، وأضاف متسائلًا:

«العيال بتضايقكم؟ قولولي بس مين فيهم وأنا أدبحه»

يستدير فجأة، فتتراجع حلقة الأطفال منتشية، خائفة، تطلق الضحكات. يصيح فيهم:

«هو إيه؟ قراجوز؟ دافعين حق الفرجة؟ يا للا يا واد منك له»

وحين يستمرون في الضحك، يلتقط حجرًا، ملوحًا به في وجوههم، ومهددًا كأنه يلوح لمجموعة من الكلاب. يتباعد الأطفال. ينصرف بعضهم، بينما يتراجع البعض الآخر ويبقى على مسافة آمنة.

وصلوا إلى سور المسجد. بالسور فتحة ضيقة يحاول جمع من الناس الدخول منها، يسد طريقهم آخرون يحاولون الخروج. يتقدم فرج موسعًا الطريق، صائحًا في الزحام:

«لو سمحت .. لو سمحت يا أمي .. توسعي شويه كده يا أختي .. حبة بس .. أيوه كده .. متشكرين .. تعيشي .. فوتينا يا حلوة .. عن إذنك.. أيوه كده .. أيوه كده .. يا للا .. يا للا .» وهكذا يشجعهم، ويجتاز بهم عنق الزجاجة، فيدنو من حائط الجامع نفسه، وزينة تلهث، وهي تجفف العرق من على وجهها، وتربت على صدر الشاب وتقول:

«كتر خيرك. ولا كنا حنوصل لولاك. أنا نسيت يا بني ـ نسيت الزحام شكله إيه» ابتسم هو لعائشة قائلًا:

«تمام؟» فأومأت. أردف، محتفظا بابتسامته:

«زحمة» قالت:

«أيوه. فعلا»

«خشي بقى زوري. جوه مش زحمة قوي. أنا منتظركم هنا»

تدعو له المربية مرة أخرى:

«كتر خيرك يا بني»

تتقدم زينة، وتتبعهاعائشة. تتوقفان أمام الباب وتخلعان الحذاء. تتلفت عائشة حولها، متوقعة رؤية حارس، من الذين تراهم عادة، أمام أبواب المساجد التاريخية، ولكنها لا ترى أحدا منهم. تدس زينة حذاءها تحت إبطها، ملصقة النعلين معًا، وتقلدها عائشة، ثم تخطوان على الأرضية الرخامية، الملساء، الباردة. عتمة، ورائحة بخور. نساء يرتدين السواد، يجلسن القرفصاء على البلاط الأبيض، وأمام شبابيك الضريح الحديدية مطلية أطرافها بالذهب، تحترق مائة شمعة. تتبع عائشة ظل مربيتها، وتقف، مثلها، متعلقة بالحديد المشغول، تحملق خلال السور، إلى الضريح. مئات ـ بل آلاف الشموع، تحيط بالقبر المغطى بقماش الشيفون (هل هو شيفون أم نايلون؟) الوردي في كشكشات سخية، متلألئة بالترتر. تتمتم مربيتها بتحيات مطولة، فتدرك عائشة أن هذه هي الست حبيبة، زوجة سيدي أبو السعود. لا يستطيع أحد التقرب إليه إلا عن طريقها، فلديها المفتاح الوحيد لقلبه، وإذا سألته أجابها. لايرفض لها طلبًا. تفضي إليها المبتهلة، تحدثها حديث امرأة لامرأة، تحاول كسبها إلى صفها، لتتوسط لها عند الشيخ: تضحك له، وتمسح على روحه، فيفيض قلبه انشراحا، ويجيب الطلب. تسند عائشة جبهتها إلى السور وتهمس:

«يا ست حبيبة .. أنا»

تتردد. ترمق مربيتها: عين العجوز مغمضة، وشفاهها تتمتم بآيات من القرآن. ماذا تقول؟

«ست حبيبة»

تذكرها كرانيش الضريح بزينة فراش العرس، وأغطيته. تتطلع إلى الحائط. هل سترى لوحة المرأة شبه العارية التي تزين كثيرا مما رأته من غرف نوم القاهرة. ست حبيبة. زوجة من الطبقة المتوسطة، ترقد باردة، متأدبة، في عشها النايلون الوردي، تحت عين العاهرة، المعلقة على الحائط؟ وإذا كانت «تحمل مفتاح قلب زوجها» ـ ولكن ـ إذا كانت «تبتسم له من وراء مشربيتها فتسعد روحه، وتطمئن قلبه» ـ فلا بد أنها تعرف أسرار فراشه. لا بد أنها تستقبل لمساته بدفء وليونة. لا بد أنها تلف جسدها حوله حين يأيتها في الظلام، ترحب به، و ـ زيفًا. ربما تصنعت. يشير إليها إصبع الاتهام الصارم، يسألها: هل تصنعت اللذة يوما؟ تداعبه وتبتسم له. تستسلم لرجولته .. ذكورته .. فحولته، تتقن فنون الغنج، وتتصنع اللهفة والشوق، حتى تصير الحاكم من خلف كرسي

العرش، والمؤتمن الوحيد على مفتاح قلبه ـ كفى، كفى، يا عائشة. لن يجدي هذا أبدا. صلي. إدعي. تحدثي إليها. هذا ما أتيت من أجله. تحدثي إليها الآن:

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم..»

أجل، هذه خير بداية. الفاتحة .. وسيلي ذلك الإلهام.

«اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين، آمين. ست حبيبة: أنا جيت أطلب منك طلب. أنا .. أنا ما بقتش أحب جوزي»

لم تقصد. لم تقصد أبدا أن تقول هذا. أبدا. تقبض على قضبان السور:

«أنا عايزة طفل، ومش عارفة أعمل إيه. يمكن غلط إني أفضل.. بس هو كويس .. بيحبني جدًّا .. كلهم بيقولوا كده .. وأنا كنت باحبه.. أظن إني كنت باحبه .. بس دلوقتي مش باحب ـ مش باطيق ـ مش بابقى عايزه أبدا ـ بس عايزه يبقى عندي أولاد. ست حبيبة: ما فيش حد أقدر أتكلم معاه، حتى دادتي، كلهم بيقولوا لازم تخلفي، لازم تجيبي عيل علشان حالتك النفسية تتحسن، حتى الدكتور بيقول كده. وأنا ـ أنا مش عارفة أعمل إيه»

كان الحديد ـ الذي تضغط عليه بجبهتها ـ باردًا ناعمًا ، وكانت تنشج بالبكاء.

تطوفان بمقام الشيخ أبو السعود سبع مرات، وتقرآن آيات من القرآن الكريم، تطلبان له الرحمة، ثم تستغرقان في تأملاتهما بجانب قضبان الضريح الحديدية الرصينة. لا تستطيع عائشة حمل نفسها على البوح للشيخ كما باحت لزوجته. لا يبدو ذلك لائقًا. ستعتمد على السيدة حبيبة في إيصال مطلبها. تبتسم لنفسها وهي تقف عند ضريح الولي المحبوب، وحولها عدد من السيدات الريفيات. الموقف بالنسبة لهن مألوف، معتاد، لهن دربة على صيغ الحديث، ولايعانين من الوعي الزائد بالنفس. عندهن اليقين، فلا تأتيهن الخواطر السطحية السخيفة الساخرة.

تتحرك زينة في وقفتها استعدادًا للرحيل، ويصيب عائشة ذعر مفاجئ: بعد كل هذا، سترحل دون أن تذكر مشكلتها للشيخ؟ ماذا لو نسيت زوجته؟ أمعقول هذا الكلام؟ هي تعرف ـ تعرف أنه ليس معقولاً ـ ولكن، مهما كان ـ ما الضرر يعني ـ ومن يدري ـ تهمس في عجل خلال السور:

«سيدي أبو السعود: حادبح لك خروف لو حليت مشكلتي»

تشعر ببعض الحرج من نكهة الرشوة الملتصقة بعرضها، فتعود توضح:

«للغلابة يعني. حندبحه باسمك، ونأكله للفقراء»

تقف لحظة ممسكة بالقضبان، ثم تضيف:

«وحاولع مائة شمعة لست حبيبة»

لا بد أن ذلك سيسعده. تتحرك زينة على مهل تجاه الباب، في حين تهمس عائشة همسة أخيرة راجية:

«بس والنبي، والنبي، والنبي تساعدني»

تترك حديد السور وتسرع وراء مربيتها فتتأبط ذراعها.

وما الضرر على أي حال؟ ليس إلا لعبة كالألعاب التي اعتادتها: «يجب أن أصل إلى التليفون قبل الرنة الثالثة» و«لا بد أن أكون داخل الشقة قبل انطفاء نور السلم» و«عليَّ أن أخطو على البلاطات فقط ولا ألمس الشقوق بينها» وإلا وإلا وإلا ـ خطر غير محدد يحدق بها دائما ـ وهي لم تحدد طلبها بالضبط، بل تركته مبهما، فلتدعهما يقرران الحل المناسب لمشكلتها، الشيخ وزوجته، فهما أحكم منها ـ وبالتأكيد أكبر سنًّا. فليقررا ..

على باب المسجد كان الجزار ينتظر.

لم تكن قد لاحظت الندبة على خده الأيسر، تمتد مائلة من منبت شعر الرأس إلى زاوية الفم، في خط رفيع، لونه بني داكن، تسايره نقاط صغيرة خلفتها الخياطة. ابتسم متسائلًا:

«قريتي الفاتحة؟»

كان السؤال موجهًا لها، ولكن زينة تطوعت بالإجابة:

«أمال. للشيخ وللست حبيبة»

يتوسط المرأتين، ويقودهما خارج ساحة المسجد، ثم إلى أسفل منحدر التل. يقول لعائشة:

«لو بتحبي الحاجات دي، أنا أقدر أوديكي حضرات أحسن من دي بكتير»

تسأله:

«يعني إيه «أحسن»؟»

«أنضف .. أرقى .. في شقق وبيوت. حاجات على مستوى. الستات اللي بتحضر هناك كلها هوانم. لابسين فرو وألماظ. . أليق لك يعني»

«ليه؟»

«ليه إيه؟»

«ليه أليق لي؟»

أُخذ بالسؤال.

«يعني.. الستات دي كلها فلاحين»

«وما لهم الفلاحين؟»

فكر قليلا، واستمرت هي:

«أنا انبسطت قوي هنا النهارده. حبيت المزيكة ـ وكل حاجة»

«بس ما فقرتيش»

«عرفت منين؟»

«عرفت»

تهز عائشة كتفيها، فيسأل:

«خفتي؟»

«طبعا لا .. حاخاف من إيه؟»

جاء دوره ليهز كتفيه.

«قدموا بقى. شهلوا حبة، إحنا اتأخرنا ـ » لم تستطع زينة سماع الحديث الذي دار بين الاثنين بصوت خفيض، فتذمرت. سأل:

«حتروحوا إزاي؟» وأدرك الإجابة عندما تباطأت عائشة في الرد.

«معاكي عربية؟»

أومأت.

«بتسوقي؟»

أومأت مرة أخرى. خفض صوته قليلا وقال:

«لو بتحبي الحضرات، وتحبي تتفرجي على الناس، يبقى لازم تيجي مولد سيدي علي يوم السبت»

«سيدي علي؟»

«سيدي على زين العابدين، ابن سيدنا الحسين»

«ما سمعتش عنه قبل كده»

«ده الولي بتاع حتتنا .. حي المدبح. سمعتي عن المدبح؟»

«حي خطير»

«أنا حاخد بالي منك. ما حدش يقدر يكلمك. دي حتتي»

«والمولد يوم السبت؟»

«هو كل يوم سبت فيه زي احتفال كده صغير. بس السبت الجاي المولد، المولد الكبير. حيعجبك. حتتفرجي وتنبسطي. قلتي إيه؟»

«حاعرف السكة إزاي؟»

يصلون الآن إلى السيارة.

«أركب معاكي وأوريكي»

تفتح عائشة باب السيارة، ثم تميل لتفتح الباب الخلفي قائلة:

«معلهش يا دادة تقعدي ورا حبة؟ فرج حيورينا السكة للمدبح»

تقول زينة معترضة:

«واحنا عايزين المدبح نعمل به إيه؟ حنشوفه ليه يعني؟»

تدفعها عائشة برفق إلى المقعد الخلفي ثم تغلق الباب عليها قائلة:

«أنا ما شفتهوش»

صاحت العجوز:

«طب ما نت فيه حاجات ما شفتيهاش ياما! يعني لازم تشوفي كل حاجة؟ هو العمر فيه كام يوم؟»

اتخذت عائشة مكانها أمام عجلة القيادة، في حين جلس الجزار بجانبها ممدداً ساقيه المكسوتين بالجلد. قال، وهو يربت على المقعد الجلدي:

«عربية واسعة. رحبة» سألته:

«أمشي إزاي؟»

زينة تحادث الشباك:

«طول عمرها راسها ناشفة. لما تطلع في مخها حاجة ـ ولا حد يقدر يقف في سكتها»

عائشة لا ترد عليها، فهي تتابع تعليمات فرج، حتى خرجت بالسيارة من الشارع الضيق الموحل إلى أرض ترابية كبيرة متسعة.

قال:

«وصلنا. السور اللي على اليمين ده، سور المدبح نفسه. والمبنى اللي جنبه ده قسم البوليس. وهناك..» يشير إلى الجهة المقابلة: «شايفة الحارة اللي هناك دي؟ تمشي فيها توصلي فسحاية فيها قهوة. أهو الاحتفال حيكون هناك. بس ما تحاوليش تخشي بالعربية. سيبيها جنب القسم ـ في الأمان. إن ما شفتينيش على طول اسألي أي حد. بس أنا حاستناكي» يستدير ليفتح باب السيارة، ثم ينتظر حتى ينتهي قطيع الجمال المار بجانبهم. تسأله عائشة في قلق:

«دول رايحين يتدبحوا؟»

تنفجر مربيتها في المقعد الخلفي:

«لأ، رايحين رحلة، أنا اللي حاندبح إذا اتأخرنا عن كده. جوزك زمانه روح من بدري. حنقول له إيه بس؟»

أدار فرج رأسه، يرقب عائشة. تواجه عائشة نظرته. لم ترتكب خطأ. لم تكن هناك مناسبة من قبل لذكر زوجها.

تفتح زينة الباب وتنزل بتثاقل، بينما يتهادى آخر الجمال متجاوزًا السيارة. تفتح الباب المجاور لفرج قائلة:

«مع السلامة. كتر خيرك على المساعدة. احنا حنروح دلوقت، والست ما عادتش جايه هنا تاني»

لم يرفع عينيه عن عائشة وهو يقول:

«حاستناكي»

غادر السيارة، ووقف لحظة، ثم مشى، يتبع آخر الجمال إلى داخل المدبح.

السبت:

وعدنا للأيام الخوالي.

تقود عائشة سيارتها بامتداد الكورنيش المظلم، ويمتد النيل إلى جانبها متسعًا ومعتما، تنعكس على وجهه الأضواء المتماوجة. طلبت من ميمي أن تصحبها، ولكن ميمي اعتذرت، كما اعتذرت صديقتان أخريان، فقررت عائشة أن تذهب بمفردها. لم تصطحب مربيتها، لأنها، للحق، لا تريدها، فقد شعرت لأيام بعدم رضى دادة زينة عن مشروعها. كانت ستتململ الليلة وتتجهم وترى خطارًا وسفاكي دماء، وتصر على العودة إلى البيت مبكرًا. لم تسترح زينة لفرج. بعد أن عبر بهما الزحام، كان من الواضح أن دوره انتهى في عينيها، أو أنه تبدل: فلم تعد تراه شهما حاميا، بل رأته متطفلا، انتهازيا، يغتنم توصيلة في سيارة فاخرة. ويحاول غواية

ربيبتها. قالت زينة لعائشة لما أصبحتا وحدهما بالسيارة:

«خلي بالك. ده مش زي الرجالة اللي إنت تعرفيهم. مش زي الأجانب، ولا زمايلك في الجامعة ولا الأولاد في النادي. إنت ما تعرفيش الصنف ده: ده جزار، وأنا عارفة مخه ماشي إزاي. لاقيكي بتحضري حضرة، وتخليه يزوّرك الشيخ، ويركب معاكي العربية، وتواعديه على يوم السبت، لازم حيفكر في حاجة»

ضحكت عائشة قائلة:

«أنا مش فاهمة إنت بتفكري إزاي. أنا عملت إيه عشان «يفكر في حاجة»؟ ثم إنه كان مهذبا ولطيفا، وكمان كانت حتته. وإذا كان انبسط من إنه خلى باله مننا وركب معانا ـ فيها إيه يعني؟ مش معقول حيفكر في حاجة»

«إنت فاهمة يعني عشان بنت ناس وهو جزار مش حيستجري يفكر فيكي؟ غلطانة. هو شايف نفسه معلم، بيكسب بالألوفات. حيقول لروحه الراجل ما يعيبه إلا جيبه ـ وكمان أنا شاب، وشكلي كويس وألف من تتمناني، ودي باين عليها مبسوطة من التراب والفلاحين والسلخانة ـ حيقول لروحه: وماله؟ فيها إيه يعني؟»

اعترضت عائشة:

«إنت دايما خايفة من كل حاجة. على طول مستنية المصايب. طيب، أديكي عرّفتيه إن أنا متجوزة. خايفة من إيه بقى؟ أظن خلاص مش ممكن حيفكر في حاجة؟»

زمت مربيتها شفتيها قائلة:

«إنت مش فاهمة أي حاجة. وربنا إنك ما تعرفي حاجة»

ثم لزمت الصمت بقية الطريق.

يذكرني اليوم بالماضي، حين كانت تهرب من والديها، لتذهب مع الصديقات إلى مرقص أو حفلة. كانت نزهات بريئة كهذه النزهة تمامًا، والحق أنه لم يكن هناك داع للسرية ـ لكنها كانت تعلم أنهم سيمنعونها. الفرق هذه المرة، وتلك المرات هو عدم رضا مربيتها. ولكن مربيتها لم تكن أبدا راضية. كانت تتستر عليها، ولكنها لم تكن راضية. لن تخبر أحدًا، وهذا ما يهم .. وإن أخبرت؟ أحسن. لندع الأمور تتضح وتبلغ منتهاها. دعهم يعرفون جميعًا أنها ستفعل ما يروق لها، وأنه لا ضرر منه. دعهم يدركون أن في الدنيا طرقا أخرى للعيش غير الطريقة التي اختاروها، وليدركوا قلقها وعدم استقرارها في الطريق الذي اختطوه لها. ليس الأمر

أنها تود الذهاب إلى الحضرات والمراقص في كل يوم من أيام حياتها، ولكنها تريد أن يدركوا وجود أناس .. آلاف .. وربما ملايين، يتحدثون مع الجن بألفة أكبر مما تجد مع زوجها. يعملون، ويعانون، ويدخرون، ثم ينفقون عرقهم راضين على إسعاد الأسياد واستمالتهم. سيقولون: ثم ماذا؟ هذه ظاهرة معروفة. اقرئي أي كتاب في الأنثروبولوجيا الاجتماعية ـ ستجدينهم فيه: أناس بدائيون، يلجأون إلى الخرافات لتفسير العالم، فما الجديد؟ ستتحداهم قائلة: وماذا عن الفتاة التي أفاقت من ذهولها؟ سيبتسم والداها في لطف، ويبدو الضجر على وجه زوجها. ستقول: لا أختلق، لقد حدث ذلك بالفعل. لم أسمع به، لم يَحك لي أحد. بل رأيته، رأيته بعيني. ستطلع أمها بنادرة أدبية ـ من أدب أجنبي: كاثي تنقر على زجاج نافذة هيثكليف، وقد يذكر أبوها شيئًا عن الأبحاث العلمية في التنويم المغناطيسي والإيحاء، في حين يضحك زوجها قائلًا: مررنا بتجربة ميتافيزيقية منذ أيام قلائل. أليس الوقت مبكرًا لواحدة جديدة؟ وإذا كان مزاجه معتدلًا سيربت على رأسها. يكون أحيانًا لطيفًا جدًّا، وذكيًّا، وصاحب نكتة. ودت من قلبها أن يشاركها مغامرتها. ذكرت له زيارتها لسيدي أبو السعود، وانتظرت منه أن يسألها، يسائلها، يحاورها ـ ولكنه لم يفعل، لذلك لم يكن من الصعب أن تقرر الذهاب ـ دون علمه ـ إلى مولد سيدي علي زين العابدين.

أحسست بها قريبة جدا أثناء رحلة السيارة. اقتربت واقتربت مني. سعدت لأنها أتت بمفردها، وكأنها شعرت بضرورة أن نكون وحدنا. أحسست أنها بدأت تتعلم، بدأت تتحرك نحوي، واكتفيت وقتها بالانتظار. راقبتها. أصاب زوجها حين اشتكى من أنها شخصية مسرحية، فقد أحبت دائما أن تدخل في الدور. تأملت ثوبها الأسود الذي يصل إلى ما تحت الركبة بعدة سنتيمترات محتشمة، وسترتها الناعمة التي ارتدتها وقاية من برودة الليل، والجوارب الحريرية والحذاء ذا الكعب العالي. وتلك الليلة، عادت دبلة الزواج إلى إصبعها.

تركت عائشة السيارة في حرص بجوار قسم البوليس. تغلقها وتسك أبوابها، ثم تربت علىها حانية وتهمس:

«مش حاتأخر عليكي»

تسير عدة خطوات ثم تلقي نظرة خلفها. تبدو الآلة اللامعة الملساء بائسة وسط عربات الكارو والجِمال البارکة وأكوام التبن والقمامة، فتغمغم مرة أخرى:

«مش حاتأخر»

تبدأ عبور الساحة، ويترك حذاؤها حُفرًا صغيرة في الأرض. الأرض مبتلة رغم أن الدنيا لم تمطر منذ فترة طويلة. تمر ببالوعات، وتستنشق رائحتها مختلطة بروائح السلخانة والمدابغ. تساءلت إن كان قاطنوا المنطقة يبالون، إن كانوا يستاءون، أو يلاحظون؟. لعل ثوبها ملائم ولا تجذب كثيرا من الانتباه. قطبت. يكفي أنها هنا: امرأة بمفردها ـ وفي رداء غربي. هل كانت تستعير إحدى

جلاليب مربيتها الطويلة السوداء؟ تكون حماقة بالتأكيد، وكانت ستضطر للتغيير في الجراج. كلا، لا شك أنها فعلت الصواب. لا يمكن أن يعترض أحد على ثوب أسود بسيط.

تسير محاذرة موطئ قدميها، وتتجنب المناطق الموحلة، وتبتعد عن طريق الجِمال والجاموس والخراف والماعز والجياد والبغال والحمير وكلب ضال. تتناهى إلى مسامعها أنغام المزامير وقرع الطبول. تصل إلى أول الحارة، فتنخرط في زحام كثيف متهدج. تدرك أنه لا فائدة من المقاومة، فتستسلم، وتدع التيار البشري يحملها إلى ذلك القلب الحي الذي يجتذب إليه كل هؤلاء الناس. يتحرك الحشد ببطء خلال الحارة، وبمرور الدقائق تضعف رائحة الذبائح والمجاري، وتملأ الأنف رائحة بخور المسك والعنبر.

تبلغ عائشة نهاية الحارة، لتقف على أعتاب ميدان تستنتج أنه مركز الاحتفال الرئيسي. لا ترى شيئا من موقعها سوى سرادق كبير عالٍ يغطي رقعة الأرض كلها، وتتدلى من سقفه عدد من الثريات الضخمة. تصم دقات الطبول الآذان، يصاحبها صوت مئات الرجال في ترانيم الذكر، وفي الخلفية تأتي أنغام المزامير. توقف الحشد عن الحركة فتساءلت في نفسها عما يجب أن تفعل. تجرب «لو سمحت»، وتلمس ذراع الرجل الواقف أمامها فلا يتحرك. هي مزنوقة الآن بين سيدتين في ملايات لف تديران محادثة عالية عبرها. تشرئب لتنظر أمامها: كتلة متلاحمة من البشر على امتداد البصر. لا تستطيع العودة أو حتى الاستدارة.

تقبض يد على ذراعها. تلتفت لترى فرج الجزار يبتسم لها قائلًا:

«اتأخرتي. قلت: دي مش جاية»

تبادله الابتسام. سيكون كل شيء على ما يرام الآن، فهذه منطقته، وهو يعرف ماذا يفعل. سيعتني بها. يقول لها:

«حجزت لك مكان. تعالي»

ظل ممسكًا بذراعها، ويقودها فاتحًا ممرًّا لهما خلال الزحام. تتعجب كيف يفعل ذلك؟ فهو لا يبذل مجهودا على الإطلاق. يتقدم فقط، فيتركه الحشد يعبر من خلاله. يصطحبها معه، وينغلق الزحام من خلفهما مرة أخرى.

وصلا إلى فناء مفروش بالسجاد، تقف عليه صفوف من رجال يذكرون. يجلس العازفون بطرف الفناء على منصة خشبية مرتفعة: رجال يحملون الطبول والدفوف والنايات والمزامير. تحيط بالراقصين دائرة واحدة من الكراسي الخشبية، ومن خلفها وبكل مكان: الزحام. الزحام يمتد إلى حافة الساحة، ثم يغيب في الأزقة المتفرعة منها. قد يتموج فيكتسح أحد الكراسي، فيفقد الجالس عليه توازنه، ولكنه سرعان ما يتمالك نفسه فيدفع الزحام إلى الخلف بمرفقيه، ويستوي في مجلسه، ويعود الزحام فيستقر إلى حين. ترى عائشة دكة خشبية مفروشة بكليم صوفي ملون و ـ يا للعجب ـ خالية. يصلان إليها فيقودها فرج قائلًا وبصوته نبرة تفاخر:

«مكانك أهه ـ حجزته لك من بدري»

تفكر للحظة في البراغيث، ثم تزجر نفسها، وترد عليه:

«متشكرة جدا»

تجلس، وتتذكر في الوقت المناسب أن النساء هناك لا يضعن ساقا فوق ساق. ضمت ساقيها، ومالت بهما بأدب إلى جنب، وساوت ثوبها ليغطي ركبتيها. وضعت حقيبة يدها على حجرها، وألقت بيدها عليها، ثم راحت تتفرج حولها.

دخان السجائر والبخور يُكون سحابة زرقاء في الجو. يستريح عازفو الناي والمزمار، بينما تزداد حماسة قارعي الطبول، وبالتالي الراقصين: رجال في جلابيب بيضاء وعمامات، وفلاحون في جلابيب صوفية وطواقي، وعساكر في الكاكي، ورجال في سراويل رمادية وقمصان بيضاء. رجال طوال ورجال قصار، شباب، وكبار، رجال نحفاء، ورجال سمان، البعض مُلتح، والبعض بشوارب، البعض حليق، والبعض أصلع. كل يضع حذاءه بجانب قدميه الثابتتين ويُطوح نصفه العلوي. أعينهم مغمضة، وجباههم تتصبب عرقا، يصيحون بحياته تعالى مع كل أربع دقات من الطبول. وحين ينهي قارعو الطبول دقاتهم يسود صمت مفاجئ. يتربع الرجال على السجاد، ويمسحون عرقهم في انتظار البدء من جديد.

يميل فرج عليها قائلًا:

«ده غير تفقير الحريم. الرجالة ما بتطورش»

تقول عائشة:

«متهيأ لي الستات بتنبسط أكتر. مش حتنزل الحلقة؟»

يخبط على فخذ بنطلونه الجلدي الأسود قائلًا:

«ما يصحش أنزل بلبس المدبح. كنت عاوز ألبس لك جلابية حرير بيضا، بس ما لحقتش. خفت توصلي بدري. اتشطفت بس وجيت على طول»

ترد عائشة:

«أنا آسفة. بوظت عليك الليلة؟»

يبتسم قائلًا:

«إزاي؟ ده أنت منورة. وبعدين الحلقة دي خفيفة عليّ»

يستأنف العازفون مرة أخرى. نوع الموسيقى مختلف الآن. ينخفض صوت الطبول ليتوارى في الخلفية، ويحتل خشبة المسرح عازف الرباب. يمر بالقوس على الآلة، ويسعل في الميكروفون، ثم يبدأ في مدح سيدي علي زين العابدين.

تلتفت عائشة إلى مضيفها متسائلة:

«فين جامع سيدي علي؟»

يشير قائلًا:

«هناك .. شايفة الحيطة دي؟ والشباك العالي؟ المدنة بتاعته تتشاف من سيدي أبو السعود»

تغمغم:

«ما أخدتش بالي»

عازف الرباب يتغنى بنسب سيدي علي. تتفحص الزحام. يشغل المقاعد رجال فقط ـ لا، هناك امرأة واحدة جالسة بالإضافه إليها. ترتدي جلباب رجل، وتضع ساقًا فوق ساق. تلبس جوربا رجاليا سميكا أسود، وخفا ذهبي اللون. رأسها مُعمم بشال لاميه ذهبي تتدلى أطرافه على جبهتها. عيناها محددتان بكحل ثقيل، وهي تدخن. استدارت المرأة، فحولت عائشة نظرها في الحال. يبدو بقية الرجال من عِلية القوم: كبراء البلاد، وجدود وآباء محترمون. جلابيبهم من الحرير أو الصوف، نظيفة ومكوية جيدًا. تغطي رؤوسهم العمائم البيضاء المنشية، أحذيتهم لامعة، وبأيديهم، التي تقبض على العصي الغليظة، خواتم ذهبية. تمر بينهم علبة نشوق فضية. كان يمكن أن يكون أي واحد منهم جدها.

«اللي واخد عقلك»

تلتفت إلى فرج. يلف سيجارة تدرك أن بها حشيشا. يقرأ نظراتها فيسألها:

«عايزة؟»

«يعني»

«الستات هنا ما بتدخنش»

تشير ناحية المرأة الغريبة قائلة:

«طب ودي؟»

«دي حاجة تانية. دي معلمة. تعمل اللي يعجبها»

«يعني إيه معلمة؟ معلمة إزاي يعني؟»

«معلمة. بتشغل فلوسها، وتعمل اللي هي عايزاه. عمرها ما خلت لراجل سلطانًا عليها، حتى لو اتجوزت تخلي العصمة في إيدها. قوية. شفتها بتضرب رجالة ـ رجالة بشنبات. ما حدش يقدر يقف قدامها»

تمد عائشة يدها، فيقول محذرًا:

«بلاش»

تصر قائلة:

«ما حدش حياخد باله»

ثم تتناول اللفافة. هو فعلا تهور. ولكن أيعرفها أحد من الموجودين هنا؟ أيمكن أن يهب الخلق فيمزقونها إربًا إربًا لمجرد أنها سحبت نفسًا من سيجارة؟ ومتى تتاح لها مثل هذه الفرصة مرة أخرى؟ تسحب نفسًا، وتحتفظ به لبرهة ثم تخرجه. تفضل أن تموت على أن تسعل. تشعر بالتهاب في حلقها وعينيها، وبتنميل في ركبتيها، وبتمدد داخل رأسها، ويتصاعد داخلها الشعور بالغثيان. تتشبث بحقيبة يدها. سمعت الكثير عن الحشيش، ولكن لم تتح لها فرصة تجربته من قبل. حتى عندما يمرر أقران زوجها لفافة فيما بينهم، لا تملك إلا مشاركتهم في تمريرها فقط، دون أن تذوقها. يُعد الأمر بالنسبة لهم جرأة وبوهيمية، أما بالنسبة لها فلا: المطلوب منها أن تبتعد عن مثل هذه الأمور، وتكتفي منها بموقف المتفرج. لم تقتنع بذلك أبدا. تاقت إلى التجربة، وها قد جربت .. الآن. تأخذ نفسًا آخر، فيطغى عليها الشعور بالغثيان. تعيد إليه اللفافة وهي تفكر في أسف: لم يتح لي الوقت الكافي. فالوقت قصير، وأعصابي مشدودة. كم أود أن أدخن واحدة ببطء مع صديقاتي. أجذب أنفاسًا صغيرة ثم أخرجها حتى تعتاد معدتي الأمر،

فأستطيع الاستمتاع بتمدد الرأس، ورؤية إلى أين يقودني ذلك، أما هكذا فلن ينفع.

ينظر فرج إلى يدها اليسرى التي تضعها فوق اليد الأخرى على حقيبة يدها .. إلى دبلة زواجها. وبجرأة مبعثها النفسين اللذين أخذتهما من لفافته، تشاغله:

«كنت خايفة إني ألفت النظر هنا، يعني علشان لوحدي»

«ما نتيش لوحدك، وما حدش واخد باله من حد. ده مولد، بيجيله ناس من كل صنف: مريدين .. مجانين .. أغنيا .. قضاه .. عساكر .. أتباع سيدي علي .. ده فيه لواء مشهور في الجيش، بييجي كل سنة، ينصب خيمة، ويملاها أكلاً، ويلبس خيشًا، ويوكل الغلابة بإيديه، دلوقتي نروح ورا الميدان وأوريكي»

يدوي خلفهما صوت بوق، فيستديران. حصان أسود ضخم يشق طريقه متبخترا وسط الزحام، يمتطي صهوته رجل يحمل بوقا طويلا وعلما أسود. شعر الحصان مزين بالشرائط الملونة، وسرجه مزدان بحلي نحاسية صغيرة. يشخر الحصان، والراكب يمنعه من دخول الحلقة. تهمس:

«إيه ده؟ مين ده؟»

يجيب:

«ده موكب الطرق، ودي بيارقهم»

تجمع الموكب خلف قائده، وتفرق الزحام. يتخايل الحصان الأسود في طريقه: رقبته مقوسة متعالية .. أنفه متسع .. عيناه تدوران في مقلتيهما. إذا أرخى الخيال لجامه لحظة، فمن المؤكد أنه سيرمح غير آبه بشيء، وهو الآن يرقص برشاقة حول الحلقة يتبعه موكب الخيالة الطويل على جياد سوداء يرتدون الملابس السوداء، ويحملون الرايات السوداء. العمائم على الرأس فقط بيضاء. تلمع أعينهم وهم يقودون مطيهم بطول الشريط الرفيع الذي يفصل الأرض المفروشة بالسجاد عن المقاعد. تظل عائشة جالسة، ويمر أمامها الحصان تلو الحصان، وفي مجلسها هذا لا تكاد رأسها تصل لمستوى بطونهم، وتحتك ساق حصان بساقها من حين لآخر. يصل إلى أنفها خليط من رائحة الحيوان، والعرق، المجاري التي ضعفت رائحتها ولكنها موجودة، رائحة الدم والمدبح، ويغلف كل هذا رائحة البخور الحلوة. ترتفع الحرارة داخل السرادق، فأجساد الخيول تطلق صهدا، وكذلك الزحام والموسيقيون والذاكرون. يذكر الراوي محاسن سيدي علي، ويبدو الولي من كلامه فتوة ومعلما أكثر منه شيخا. تزداد الحرارة، وتزداد .. ويمر الآن الحصان الأخير.

يقول فرج:

«نقوم؟»

أومأت واستدارت إليه وهي تنهض. هي مضطربة .. قلقة .. ضعيفة ـ ينظر إليها ويقول:

«تاكلي حاجة؟ فيه كباب ـ فيه كل حاجة»

«لأ. لأ، شكرا»

«لونك راح»

«أبدا. ما فيش حاجة. حتعدي»

«طب نطلع في الهوا»

يقبض على ذراعها مرة أخرى، ويقودها خلال الزحام. يهمس لفتى قريب، فيتحرك ويشغل دكتهما. يلتفت لها ويبتسم مستحثًّا:

«عايز أطلعك من الزحمة دي»

تَبِعته. يقودها من ذراعها، وتبقي عينيها على الأرض، فلا ترى إلا ساقي سرواله الجلدي والحذاء الطويل يخطو خطوات واثقة في الوحل. يتجاوزان الزحام فجأة، وتشعر بالهواء باردًا ومنعشًا، به بقايا طفيفة من أثر الروائح المختلفة. تحدس أنهما خرجا من الجانب البعيد عن السلخانة.

الظلام دامس، ولكنها استطاعت تمييز منازل على جانبي الحارة. يتوقف أمام أحدها قائلًا:

«بيتنا»

خلال فرجة صغيرة بالباب ترى عدة درجات متعرجة، ومصباح كيروسين يضيء المكان. يشير إلى الجانب المقابل من الحارة قائلًا:

«وده مدفن والدتي»

تلتفت متسائلة:

- «هنا؟»

ترى سياجا من حديد، وتميز خلفه قبرا أبيض. ترى بابا في السياج فتحاول فتحه، ولكنه يقول:

«مسكوك»

تابعا السير. تحوَّل الطريق إلى تشكيلات من الحُفر فوضع يده على ظهرها حتى يمنعها من التعثر. ثم توقف ووضع يده في جيبه، فتوقفت هي وسألته:

«مش بيصعب عليك الحيوان لما تيجي تقتله؟»

يجيب مندهشًا، ويده لا تزال في جيبه:

«لأ. هو أنا باقتله؟ أنا بادبحه»

«ما بيحاولوش يهربوا؟»

«لأ. الحيوان لا مؤاخذة بيحس. بيعرف يعني إن ما فيش فايدة. مرات البهيمة تحرن، ونقعد نجر فيها - بس العادي يعني بييجوا مع الواحد. بس أنت مالك ومال الحاجات دي؟»

يبتسم:

«اتفضلي»

يمد يده بقطعة حلوى قائلًا:

«حاجة حلوة. حلي بقك»

تتناول عائشة قطعة الحلوى من يده. ينظر إليها وهي تفتحها وتضعها في فمها. طعم الربسوس. سنوات .. مضت سنوات لم تذكر الربسوس.. منذ المدرسة. تبتسم قائلة:

«نكمل؟»

يعاود إمساك ذراعها بإحدى يديه، ويضع الأخرى على ظهرها. تقول:

«يمكن أحسن نرجع»

يقودها قائلا:

«مش عايزة تتفرجي؟ تقريبا وصلنا»

ترى الآن وَسَعاية محاطة بنفس المنازل الصغيرة العارية من الطلاء، والتي تلتصق بعضها ببعض. أما في الوسط، فكانت القبور. قبور كبيرة وقبور صغيرة ـ وتبدو متعددة الألوان. تسأل:

«ترب؟»

يجيب:

«ترب»

«ملونة؟»

«أصفر، وأزرق، وأخضر، الأبيض عايز صيانة، بيتوسخ بسرعة»

تقترب أكثر. ترى حبال الغسيل ممتدة بين كل قبر وآخر، تتدلى منها ملابس الأطفال. تستقر فوق أحد القبور صينية صفيح مستديرة، عليها ثلاثة أكواب بها بقايا الشاي، وبراد صغير. وهناك، في حِمى قبر صغير، ينام رجل. لم تزر في حياتها سوى قبور عائلتها. مشوار طويل، تقوم به الأسرة في المناسبات. الطلوع إلى المدافن. مشوار طويل يباعد بين الأحياء والأموات ـ وكأن المسافة طويلة بين الحالين. أما هنا، فيجتمع الاثنان، يتشاركان، يتلاصقان. تستدير باحثة عن معلمها. خلال يومين فقط ـ يا لكثرة ما تعلمت.

هل كان يجب أن أعرف وقتها؟ كانت العلامات تنتظر من يقرؤها. الآن عندما أستعيد ما حدث، يخيل إلي أنها أحست بشيء. أدركتُ ذلك في اللحظة التي اقترحت فيها العودة. أدركت أنها بدأت تشعر بعدم الارتياح، ولكني عزوت ذلك إلى رغبة أخيرة في التراجع أو حتى الخوف العادي. حبيبتي المسكينة الغالية.

يمشيان تجاه جانب من الأرض الواسعة، وهناك، خارج مقهى صغير مضاء إضاءة خافتة، تجلس امرأة، ويرقد في حجرها قط. بدت الأرض حولها وكأنها تموج. تقترب عائشة وتنظر.. تموج الأرض بالقطط. عشرات .. ربما مئات القطط تتحرك بهدوء، تعبر بعضها بعضًا .. قطط فوق قطط .. قطط تحت قطط .. يتمسحون بالكرسي .. وبساقي المرأة. في مسامع عائشة مواء جماعي عميق. تلتفت إليه قائلة:

«دول كلهم بتوعها؟»

يغمغم:

«مجنونة، عاملاهم أهلها. بتتحكم في قطط الحتة كلها. تنقي دكر ونتاية، وتجوزهم. ولو واحد منهم بص برة تشتمه وتضربه»

تقف عائشة محدقة في الظلام: تهمس المرأة للقطط بلا انقطاع، تلتقطها وتمسح عليها وتنظر في عيونها، ثم تضعها على الأرض من جديد. تتوسد القطط قدميها .. موجة وراء موجة، كل يحاول الاقتراب أكثر.

يقول:

«يا للا»

يلتف ذراعه الآن حول وسطها. تحاول بلطف أن تفلت منه، ولكنه، وبرقة، يشدد قبضته عليها. يستمر في السير، ثم يقول:

«ما قلتيش من الأول ليه إنك متجوزة؟»

«آني أول؟»

«من الأول»

«ما كانش فيه أول. ما جاتش مناسبة»

يلزم الصمت، ويواصلان السير، ثم يسأل:

«وجوزك فين الليلة؟»

«عازم ناس .. تبع الشغل .. برة»

«وبيشتغل إيه بقى؟ دكتور ولا مهندس؟»

«في السلك الديبلوماسي»

«والنبي جد؟»

«أيوه»

«وعارف إنك هنا؟»

ترددت...

«ما يعرفش؟»

«بتسأل ليه؟»

«باسأل»

«طب ويهمك في إيه؟»

«باسأل»

«مش عايزة أتكلم عنه»

«اشمعنى؟»

«أهه، مش عايزة»

«ليه يعني؟ عشان أنت هانم وهو بيه، دبلوماسي.. وأنا»

«أرجوك، من فضلك، ما فيش داعي للكلام بالطريقة دي»

«طريقة إيه؟ إنت اللي بتزعقي ومش عايزة تتفاهمي»

«أنا لازم أمشي»

«تمشي؟ دلوقتي؟»

«أيوة. دلوقتي»

«ده المولد في أوله. لسه الحاوي، والتعابين، والأكل»

«كفاية عليا كدة. لازم أروح»

«ما ينفعش. دانا حاجز لك الكرسي»

«أنا تعبت. ودماغي لفت. ولازم أروح»

تمشي بإصرار رغم جهلها بالاتجاه الصحيح. تبتعد عنه ، وتجتاز المزيد من الحفر والقبور ثم تتعثر فتستند إلى جدار أحد القبور وتعيد لبس حذائها. يقبض على ذراعها قائلًا:

«السكة دي ما توصلش»

«طيب وريني منين؟»

«مش ممكن تمشي دلوقتي» يقولها وهو ممسك بأعلى ذراعيها، يثبتها إلى جدار الضريح. تنثر رأسها إلى الوراء فيرتطم بالحجر. يسري الألم في رأسها وعينيها، وتصيح:

«لازم أمشي»

يسد فمها بيده قائلًا:

«حيبقى شكلي غبي قوي لو رجعت لوحدي»

تعضه فيسحب يده ثم يصفعها فيرتطم رأسها بالحجر مرة أخرى. يقبض على شعرها بيد، وباليد الأخرى يشق سترتها الصوفية الناعمة. تتنبه إلى أنها ما تزال ممسكة بحقيبة يدها تحت إبطها فتسقطها وتلكمه ثم تغرز أظافرها في رقبته. يثبت رأسها بجدار القبر، ويشد شعرها، حتى تحس بعنقها يكاد ينخلع. ينحني ليرفع ثوبها، تحاول أن تركله لكن ركبته تتوسط الآن ساقيها ويده تجذب

سوستة سرواله الجلدي، تسمع صوتها متحشرجا «لأ، لأ» لكنه يسمي ويدفع ويستقبله جسدها. يدفع، وتقاتله، لكنها لا تصرخ، بالرغم من أن يده تركت فمها من زمن. متآمران، تقاتلا في صمت، قتالا مميتا حتى النهاية. ثم اندفن وجهه في رقبتها، وسواء أغلقت عينيها أم فتحتهما كان كل ما ترى هو النجوم اللامعة في السماء السوداء، وصرخت فهبطت يده مرة أخرى على فمها.

* * *

ديسمبر

نهاية العام، والبرد مرير قارس. تلمع أرض المستشفى الخاص الصغير في ضوء النيون. يلمع الضوء على الأنابيب الحمراء، والأقنعة البيضاء، والأدوات المعدنية. وعلى مائدة العمليات. على مائدة العمليات، ترقد عائشة. لقد جاهدت، فقد كان هذا واجبها، جاهدت من أجل من تحبهم. إلا أنها الآن لا تهتم كثيرا. لا أحد يعلم بعد إن كان الطفل سوف يعيش.

والآن، عليَّ أن أبدأ، مرة أخرى، في الانتظار. ربما لسنوات. ربما أكثر. لكنني أعلم أنها سوف تعود إليَّ. فهي دوما، دوما تعود. عائشة.

عــودة

أقبلت سيارة حمراء صغيرة مسرعة، وانحرفت لتتوقف تحت شجرة أمام المنزل المؤلف من ثلاثة أدوار. لم ينزل منها أحد، ولم يتوقف المحرك. ثم تحركت السيارة من جديد: دارت حول رأس الطريق ورجعت من حيث أتت.

قالت عائشة لنفسها: «أنا بحاجة إلى تلك الكتب، أحتاجها للمادة التي أدرسها» عادت بالسيارة إلى الطريق الرئيسي ثم انحرفت إلى اليمين وسارت حتى الدوار. لفته، ووصلت إلى ميدان فسيح. متأكدة هي من صحة الطريق الذي سلكته، ولكنها لا تتعرف على الميدان، تذكر حديقة خضراء، ذات أشجار وارفة، وأحواض للزهور، وطرقات من الرمل الأحمر، وبدلًا من كل هذا رأت موقع بناء: في مقدمة الموقع يقوم مسجد من حجر أصفر، علية لافتة مكتوب عليها بحروف كبيرة خضراء «جامع رضوان» تساءلت من يكون رضوان هذا؟ وما درجة الثراء والنفوذ التي مكنته من الحصول على ترخيص لبناء مسجد في هذه الحديقة المخصصة للرياضة والترفيه في وسط البيوت؟

مشت السيارة الصغيرة ببطء على الجانب الشرقي من الميدان، حيث يقوم خلف المسجد مشروع بناء آخر. الطوابق التي تم بناؤها كئيبة المنظر، ولا زال يضاف إليها أدوار أخرى. حملت لافتة عبارة «المعهد الإسلامي الأول في محافظة الجيزة»

احتل المسجد والمعهد خمسة أسداس الحديقة. نظرت عائشة إلى الشريط المتبقي. الأشجار القليلة يعلوها الغبار، والعشب خفيف، مصفر اللون. المكان مغطى بحجارة الأسمنت، وقضبان الحديد من جميع الأطوال، وأكوام الرمال. ليس هناك أحد. ظهر المكان وكأنه مشروع هدم أكثر منه مشروع بناء. تساءلت عن الضفادع التي كانوا يسمعونها في الليل، وصراصير الغيط أين ذهبت؟ هل ارتحلت إلى السدس المتبقي من الحديقة؟ كيف قسمت الأرض بينها، وهل تستطيع التعايش بسلام في هذه البقعة الصغيرة المتبقية؟ ربما لم يحدث، فتغلب القوي على الضعيف، وبقي في الأرض اليوم نوع جديد من الضفادع الخارقة، وبذلك يكون مؤسسو المسجد والمعهد قد ساهموا في تطبيق مبدأ البقاء للأصلح.

كان الطريق وعرا، ممتلئًا بالمطبات، وبدورها امتلأت بعض المطبات بالماء الراكد. تذكرت عائشة يومًا مشرقًا من أيام الشتاء، حاولت فيه ركوب دراجة بخارية، على طريق معبد أملس، وفي النهاية اختل توازنها، فسقطت، والدراجة فوقها. أقبل الجميع لمساعدتها، ولكنها نهضت، وكررت المحاولة. دار بخلدها أنه لن يحاول ركوب دراجة على هذا الطريق اليوم إلا مجنون.

وصلت إلى مقدمة الساحة. قبل ست سنوات، كان منزلهم هو الوحيد في الجهة الشمالية. كان منزلا جميلا نسبيًّا، مكونًا من خمسة أدوار، ويطل على الحديقة. اليوم، تحاصره العمارات المرتفعة، ويبدو صغيرًا بائسًا وهو يطل على الطريق المترب، وكشك السجائر

المقام على الرصيف أمامه.

بحثت عائشة حولها عن موقف للسيارة. ليست هناك شجرة واحدة توفر ظلًا، وبدا جانبا الطريق متشابهين. انحرفت بالسيارة إلى ما كان الرصيف سابقًا، ونزلت فغاصت قدماها في الرمل. عبرت الطريق إلى المبنى وهي تحاول إخراج الرمل من حذائها. ومثل الحال في الماضي، لمحت رؤوسا فضولية في النوافذ ترصد ما يجري. إلا أن عددا من هذه الرؤوس مغطى اليوم بالحجاب. ترى هل هن نفس السيدات اللاتي عرفتهن قبل ست سنوات؟ أم أنهن اختلفن؟ لعلهن الأخوات الصغيرات أو البنات. من طرف عينها لم تستطع معرفتهن. دخلت المبنى بتصميم.

الباب الزجاجي موجود، وبأعجوبة لم يكسر بعد. الردهة ذات الأرضية الرخامية نظيفة، لكن الأحواض خالية من أي نبات، وأعقاب السجائر مغروسة في التربة اليابسة. ورجل غريب يكنس الأرض. ألقت عليه السلام، فرد بجفاء، وهو متكئ على مكنسته، ينتظر أن تمر.

سألته: «هل أنت البواب الجديد؟»

رد باقتضاب: «إن شاء الله»

وبإصرار سألته: «وأين عبده وآمنة؟»

«عبده التحق بالجيش منذ وقت بعيد، وآمنة ذهبت لتقيم مع أهلها في القرية»

صعدت السلم. تريد أن تسأل المزيد. هل رزق عبده وآمنة بالطفل الذي طالما تمنياه وانتظراه؟ أم ما زالا بدون ذرية؟ ماذا فعل عبده في مشروع تعلم القراءة؟ احتل عبده وآمنة جزءا أساسيا في أحلامها القديمة بالعودة، حتى إنها ذهبت إلى محل (مذركير) تتفقد لبسا لطفل آمنة المنتظر. كم من المرات تخيلت عودتها، وبالتفصيل. ستكون عودتها في بداية السنة الدراسية، في يوم من أيام أكتوبر الدافئة. ستصل هي وسيف معا، يهلا على الأبواب الزجاجية، وراءهما خلفية من حديقة مبهجة، فيهب عبده مسرعًا لاستقبالهما، مرتديًا سرواله الصعيدي، وعلى وجهه ابتسامته الحيية. تبرق عيناه وأسنانه في وجهه الأسمر، ويصيح: «الحمد لله على سلامتك يا ست عائشة» يقبض على يدها محاولًا تقبيلها، فترفض هي وتصر على مصافحته وتقول: «إزيك يا عبده؟ إزي أحوالك؟ إزي آمنة؟ هى فين؟» وحين تسمع آمنة الأصوات والجلبة، تطل من غرفتها تحت الدرج، وترى عائشة، فتخرج وهي تعيد ربط منديل رأسها الملون، وتشرق ابتسامتها الواسعة على وجهها المليح، وتأخذها بالحضن، وتحمد الله على سلامتها وتسألها: «خلاص حتخليكي معانا على طول؟» وتقول عائشة «نعم» تقول آمنة «منورة، والنبي منورة» ويحملون جميعهم حقائبها إلى

الشقة أعلى. سيضطرون كلهم إلى النزول والصعود مرتين لكثرة حقائبها بعد هذا الغياب الطويل في الخارج. فيما بعد، تنزل إليهم، حاملة الهدايا. حرير لآمنة يكفي لفستان فاخر، ومعه الكلف والأزرار اللازمة. وساعة لعبده، ولو كان هناك طفل .. وصلت إلى طابقها.

الممر مظلم، وفي يدها المفتاح القديم، ولكنها لا تميز الثقب في الباب. مدت يدها كيفما اتفق، وفي الحال دخل المفتاح في الثقب. هل هذه مصادفة؟ هل وجدت الثقب مصادفة أم أن يدها تتذكر موقعه؟ أدارت المفتاح، كان متصلبًا بعض الشيء، لكنه دار، دورة واحدة وانفتح الباب في الحال. كالعادة .. يترك الشقة أسبوعين دون أن يكلف نفسه عناء إحكام سك الباب. ثم تنبهت: هذا أمر لم يعد يخصني.

دفعت الباب. قابلتها رائحة مدفونة في الذاكرة. مستحيل. إنها رائحة الطلاء الجديد. أثناء السنة التي قضياها هنا، كانت الرائحة موجودة باستمرار، ظنت أنها ستزول مع الوقت، مع مرور السنين في عمر الشقة. جاء زمان وذهب زمان والرائحة لا تزال موجودة. ربما قام بطلاء جدران الشقة من جديد؟ تحسست أطراف أناملها الجدار بحذر حتى وجدت مفتاح النور. لا لم يطل جدران الشقة، هي كما كانت دائما: واجهة لونها أخضر زيتوني، والأخرى أبيض سن الفيل. إذن فإحساسي بهذه الرائحة أشبه بإحساس الإنسان الذي تبتر رجله فيظل يشعر بآلامها. أشم رائحة الطلاء لأني تعودت أن أشمها ـ لا لأني أشمها فعلًا.

جالت عيناها حتى وقعت على حوض أبيض، من رخام، في وسط الحائط الزيتوني بغرفة الجلوس، وضع عليه لوح من الكرتون، ترقد فوقه نسخ قديمة من دليل الهاتف. كم رَسَمَا من خُطَط لهذا الحوض؟! «سوف نصنع منه نافورة صغيرة، ونغطي الجدار حول صدفته بقيشاني قديم، ونحيط قاعدته بنباتات في أحواض نحاسية كبيرة» كان أول شيء اشترياه للمنزل؛ في جولة في الحسين، وجداه ملقى في ركن دكان عتيق. ساوما البائع، فأعطاه لهما بثمانية جنيهات بدلًا من عشرة: الحوض، والصَدَفة، والقاعدة. حملاها برفق إلى السيارة، وبحثت هي، فيما بعد، عمن يجليها ويركبها. دلها أحدهم على محل في تحت الربع، فذهبت بصحبة حماتها، واتضح أن الرجل المقصود متخصص في تنظيف شواهد القبور. صدمت طنط عديلة، وتشاءمت، وطلبت من عائشة ألا توكل المهمة إليه. ضحكت عائشة: فلا نذير شؤم يستطيع تغييب شمس سعادتها، ولا شاهد قبر يستطيع إلقاء الظلال على المستقبل. تركت الحوض في تحت الربع لتنظيفه وسط ملائكة مجنحة وشواهد محفورة. وبعدها تم تركيبه، بصَدَفته الجميلة، على الجدار الأخضر. أحيانا، كانت تملؤه بالماء، وتضع فيه آلة صغيرة، ابتاعها أبوه لهما، تقوم بشفط المياه ورشها، مكونة بذلك نافورة مصغرة، كانت مبعث سعادة وبهجة لأصدقائهما. كانت تمضي الساعات ـ على الكرسي الهزاز ـ ترقبها.

أدارت رأسها فوجدت الكرسي الهزاز: لا زال حيث تركته من ست سنوات: قرب رفوف الكتب، ومائل نحو باب البلكونة. أهداها إياه أستاذ الشعر ذو الشفتين الغليظتين. وصلها بعد ثلاثة أيام من حفل الزفاف، ومعه باقة كبيرة من أزهار عصفور الجنة، وصار ـ

من وقتها ـ مقعدها المفضل.

خطت داخل الشقة، وأغلقت الباب خلفها بهدوء. يحتاج إلى تزييت، فمن الصعب إدارة الأكرة. حين واجهت الشقة المظلمة أحست بالدوار. اتجهت بسرعة يسارا، عبر الممر الطويل، إلى الحمام. لم تشعل الضوء، بل انحنت أمام المرحاض لتقيء. تساءلت إن كان السيفون لا زال يعمل جيدا؟ نعم، لا زال. كانت أعمال السباكة في الشقة متقنة، تبعث في نفسيهما الرضا.

غسلت فمها، وأسنانها، ثم رفعت رأسها، فرأت صورتها منعكسة في المرآة الكبيرة المعلقة على الحائط. تذكرت أن المرآة كانت جزءا من شماعة إنجليزية وجدتها في محل للأثاث القديم، رأى هو أنها بشعة، فتوصلا إلى اتفاق بالاحتفاظ بالمرآة وإطارها، والتخلص من باقي القطعة. عادت إلى المرآة. لم تعتد هذه الصورة في هذه المرآة. آخر مرة نظرت فيها، طالعتها امرأة مختلفة عن هذه التي تراها الآن. أخذت تميز الاختلافات؛ وجه أنحل محاط بشعر أقصر وأكثر تجعيدًا ـ ولكنه ما زال أسود، وحول عنقها عقد من اللؤلؤ بات اليوم جزءا منها. مرت عليه بطرف سبابتها، وتذكرت غرفتهما بالفندق الباريسي، وانبهارها حين ألقي بالعقد في حجرها. هزت رأسها. حتى تعبيرات وجهها تغيرت. يرى فيها الناس هدوءا ـ يرون فيها سكينة يعلم الله كم هي هشة كقشرة البيض. هزت رأسها مرة أخرى. ستارة الحمام والقطع المتناثرة المتناسقة اشترياها من بيروت بميزانية محدودة. ذكرت شوربة البصل مع الخبز المحمص في فندق المارتينيز في الواحدة صباحا، وهي تحسب ما تشتريه في الغد. طبقة الجبن اللذيذ على الشوربة تمتد مع الملعقة والخبز المحمص يقطعها ـ هل يمكن استعادة كل هذا؟ لمست عقدها مرة أخرى. أين هما اليوم؟ وبيروت نفسها، أين هي اليوم؟

مدت يدها إلى المرآة وبخفة لامست ملامح وجهها، لكن المرآة حاجز يحول بينها وبين الكائن الحي خلف الزجاج. لا تستطيع لمس ملامح وجهها: الأنف لا يبرز، والشفتان لا طراوة لهما. وفكرت أن هذه استعارة تصلح لوصف علاقتها به: تراه، وتستشعر تضاريسه، ودفئه، فإذا بادرت بلمسه لم تجد غير سطح أملس ـ مثل زجاج شفاف، غير قابل للكسر. أحيانا تشعر أنه وضع هذا الحاجز عمدًا فيثور فيها غضب عارم، وأحيانا تراه سجينا خلف الزجاج، يتطلع إليها لتخلصه. وقفت في مكانها دون حراك. مرتين، أثناء العام الذي قضياه معا، حبست نفسها هنا، في هذا الحمام، زنقت نفسها وراء الباب، وأخذها البكاء حتى صعب عليها النفس ـ وفي المرتين لم يأت للبحث عنها، وعندما خرجت أخيرا، منهكة، وجدته في مقعده المفضل في غرفة الجلوس، محاطًا بدخانه الأزرق، يقرأ، والموسيقى الكلاسيكية تصدح من آلة التسجيل. تبدو الفترات السيئة وكأنها مسلسل من الحمامات في فنادق العالم، تحبس نفسها، تقيء وتبكي، أو تجلس على الأرض تقرأ، الليل كله، بينما ينام هو، غير مبال، في أسرة كبيرة تسخر منها.

مشت عبر الممر إلى غرفة الجلوس ـ الأريكة القديمة والكراسي تجثم بهدوء في الظلام. عبرت إلى الأريكة، وجلست، فأحست مرة أخرى بنعومة الوسائد الخضراء المخملية. تفحصتها جيدا: الريش ما زال يتسرب منها. وقتها، ظنت أنه بعد مرور السنين لن يبقى

منه شيء، وها هي اليوم، والريش ما زال يتسرب من الوسائد.

الكتب في أماكنها: الاقتصاد والهندسة إلى اليمين، والأدب والفن إلى اليسار، وفي الوسط كتب التاريخ. أما الكتب صغيرة القطع، فكانت في المكتبة المبنية في الجدار، وعلى رفها الأسفل كانت الأشرطة. وجدت عددا من الأشرطة الجديدة ، وكذلك جهاز تسجيل جديد.

رفعت نظرها إلى الجدار فوق جهاز التسجيل .. مكان صورتها علقت مطرزة دمشقية تبين عنترة ممتطيا جواده، ومن فوقه عبلة في هودج على جمل. الجواد يتخايل ، يكاد يرقص، وعبلة من وراء ستار هودجها، تطل بحياء، وتبتسم، وفي جانب كتب:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل	مني وبيض الهند تشرب من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها	لمعت كبارق ثغرك المتبسم

وفي جانب:

أنا العبد المشهور في كل الأنا	م بالقنا مع ضرب الحسام

تجولا يومًا في الدروب الضيقة للسوق الكبير المحيط بالجامع الأموي، فوجدا هذه القطعة المطرزة بخيوط ذهبية على خلفية سوداء. رفعتها أمامه وهي تضحك وتقول: «خذها شعارًا لك: فهو مثلك تمامًا في ثقته من نفسه» للحظة كان سيبدأ في الدفاع عن نفسه، ثم أمن لحبها، وأدرك حسن نيتها، فابتسم، واشتراها.

كانت ملاحظتها في محلها: يعيش بمقاييس بطولية يدين بها أي فارس من القدماء. لو عاش في العصور الوسطى لقتل الغول، والمارد، وأنقذ الأميرة بنت السلطان، ولكان عادلا بين رجاله، رفيقا بخيله، مؤمنًا بوفاء زوجة تجلس بالدار شهورا في انتظاره ـ ولو عاش في العصور الوسطى لكان إيمانه في محله ـ ربما.

كان يردد أنه عشية موقعة (ماراثون)، أمضى أهل إسبارطة يومهم الأخيرفي التزين وتصفيف الشعر: كانوا يستعدون لاستقبال الموت. حين أعلن الفراق، جاء إلى غرفة الجلوس في المنزل المستأجر في ذلك الشمال البارد، حسن الهندام في سترة صوفية

وقميص من الحرير، سيارته أمام الباب ومفتاحها في يده، يخطو بعناية الثمل، ويعلن من أعلى الدرج: «لقد مشطت شعري»

نكست رأسها بين يديها. انتهى الأمر. انتهى الأمر ولن نعود. لننسى. لننسى كل ذلك الآن ـ درج المكتب نصف مفتوح ومزدحم بأشياء غير مرتبة: أوراق، ورسائل، وطفاية سجائر، وقارورة فضية في جراب من الجلد، ونصف قشرة جوز هند قديمة، وبوصلة من طائرة تحطمت، ومسدس. مدت يدها والتقطته: مسدس قديم من نوع كولت ٤٥ر رقمه المسلسل ٩١**. قال: «عندما تطلق النار على رأسك ينفجر دماغك ملطخًا كل ما حولك: تلتصق قطع المخ بالحوائط» سألته: «هل يمكن تحاشي ذلك؟» قال: «قبل إطلاق النار، تضع رأسك في كيس من البلاستك»

رن جرس الباب، تجمدت في مكانها. عاد الرنين فذهبت إلى الباب وفتحته. ناولها صبي قمصانًا مكوية، فأخذتها:

«كم تريد؟»

وضعت القمصان على الأريكة، وأخرجت حافظة النقود من حقيبتها وأخذت منها المبلغ المطلوب. عادت إلى الباب وناولتها للصبي.

«عندك شيء آخر للكي؟»

«لا. ليس اليوم. شكرًا»

أغلقت الباب، واستدارت تواجه الشقة من جديد. غرفة الطعام. هذه هي قطع الأثاث الأثيرة عندها. مصنوعة من خشب البلوط القديم: تتشكل منه رأس أسد وتنين، تمسك بهما لتفتح الأدراج. بدت الطاولة الرحبة والبوفيهات كأنها تنظر إليها في عتاب وفي حزن مستسلم. فتحت بوفيه فتلألأت في ناظريها الكؤوس والأكواب. كم أحبت هذه الكؤوس. وطقم الصيني المذهب. كانا يغطيان الطاولة بمفرش من الحرير الدمشقي، ويوقدان الشموع في حاملات من الفضة المنقوشة. بحثت بعينيها عن الفضية. الصواني وحاملات الشموع ليست في مكانها المعتاد. فتحت أبواب أحد البوفيهات فوجدت الإناء الياباني الأبيض الذي اشترياه من طوكيو. أحست بموجة من التعب ترتفع لتغمرها، فسحبت كرسيا وجلست. العالم كله مفعم بذكراه. أليست هناك بقعة، بلدة، بلدة واحدة محايدة، تجد نفسها فيها بدونه؟ لماذا لا تستسلم إذن؟ لماذا لا تعود؟ طوكيو والبنات دقيقات الحجم بأثوابهن القصيرة الحمراء وقفازاتهن البيضاء، يدرن المصاعد للزبائن وينحنين: «شكرًا لتبضعكم في متجرنا، نرجو أن تكونوا قد استمتعتم بيومكم معنا، أملنا أن تزورونا مرة ثانية» وتلك المعابد زاهية الألوان لبوذا ذي العينين الناعستين، يجلس في غموضه الهادئ، وهي تصفق بيديها، ثم تربط ورقة مطوية على أمنية في أحد أغصان الشجرة المقدسة. كانت تتمنى شيئًا واحدًا .. يا رب، أصلح الأمور بيننا .. يا رب،

أدعوك هنا وفي كل مكان قدسه الناس، أصلح الأمور بيننا .. أحست بالدموع المألوفة خلف جفنيها ولكنها لن تبكي فقد مر عامان على ذلك اليوم في غرفة الجلوس في الشمال البارد وأبدا لن تبكي من جديد.

تابعت بحثها عن القطع الفضية ووجدتها في البوفية الكبير. أخرجتها: صواني، وشمعدانات، وطفايات سجائر، وكؤوس للتنس، والشيش، والطالبة المثالية ـ انطفأت كلها واسودت، وصارت تبعث على الأسى: بالطبع، هو لا يتحمل رؤيتها متسخة، لكنه كذلك لن يكلف نفسه عناء تلميعها، فيخبئها في ركن البوفيه، بعيدا عن ناظريه، لعلها تختفي، أو بمعجزة ما تنظف نفسها. دعكت كأسا بأصبعها ـ هل تجد لديه (براسو) للتلميع؟ اتجهت بنشاط إلى المطبخ ـ اشترت طنط عديلة لهم أثاث المطبخ وخاطت خالتها الستائر. جميلة الستائر بورودها الزرقاء الصغيرة. نور الشمس يتخلل القماش فيضفي على المكان ضيا بشوشا لينا. وهناك طاولة الإفطار والموقد الذي تعلمت عليه كيف تطبخ شوربة الجولاش. نظرت إلى حوض غسيل الصحون. فيه كؤوس متسخة. خلعت خواتمها وساعتها وبدأت تغسلها. تذكرت الحفلات التي كانا يقيمانها؛ كان البيت دائمًا حافلًا بالأصدقاء. كيف استضافا كل هؤلاء والمطبخ صغير كهذا؟ وهذه الثلاجة الصغيرة؟ فتحت الثلاجة: داخلها الأواني التي اختارتها بعناية، والتي تعكس الورود الزرقاء على الستائر. في باب الثلاجة زجاجة بيبسي، وكرتونة عصير برتقال، وسبع بيضات. تناولت وعاء دائريا وفتحته؛ مربى. غمست طرف إصبعها ولعقت. مربى البلح التي تعدها طنط عديلة. في مخيلتها صورة واضحة له وهو صبي في السابعة، يلعب على شاطئ البحر في الإسكندرية، ومربيته تشق طريقها على حافة الموج، ممسكة ثوبها بيد، وباليد الأخرى شطيرة، تلوح له وتنادي: «تعال يا سيف، تعال كُل» حين كان في السابعة لم تكن هي قد ولدت بعد، لكن الصورة مطبوعة بوضوح في مخيلتها من قصص طنط عديلة في كل مرة كانت تهديها برطمان مربى البلح. ترص البلح المحشو بالجوز والقرنفل بعضه على بعض، ثم تصب عليه الشربات. تقول: «مربى البلح دائمًا يخرجه من البحر. كان يحب البحر، ولكن كان حبه لمربى البلح أقوى» أغلقت الإناء والثلاجة. أين صوره وهو طفل؟ وضعتها في أطر مذهبة، وعلقتها. لم ترها اليوم في أي مكان. وهو لم يكن متحمسًا لها. عادت فتذكرت الفضة، وأخذت تبحث عن سائل التلميع في خزانات المطبخ. وجدت ورنيشا لتلميع الأحذية، وصابونا.

أغلقت باب الخزانة وعادت إلى غرفة الطعام. ببطء، أعادت القطع الفضية إلى ركن البوفيه. بمقدوري أن أشتري سائل التلميع. بمقدوري أن أخرج الآن، وأشتريه، وأرجع لألمعها. أغلقت باب البوفيه، وعلى الجدار فوقه رأت خارطة سيناء: الخارطة الحربية القديمة التي استرشد بها في رحلته الشهيرة عبر الصحراء. ذهب مع صديق له. عبرا الصحراء بالجمال، وقضيا أياما في دير سانت كاترين، وأسابيع مع البدو. تستمع إلى قصصه بعينين ملؤهما التشوق وتسأل: «هل نعبر الصحراء معًا؟» فيجيب ضاحكا: «ولكني عبرتها» نعم. عبرها. وقام بأشياء أخرى كثيرة. ذكرياته أوضح في مخيلتها من ذكرياتها هي. لم يكن لها حتى ذكريات، لم يكن لها ماض، وفي لحظات الهلع، وراء باب الحمام الموصد، كانت تجزم بأن ماضيه يلتهم حاضرها.

انتزعت نفسها من الصحراء والجبال، ومشت إلى غرفة الجلوس، فوقع نظرها على القمصان المكوية. رفعتها بعناية واتجهت إلى خزانة الملابس في الممر. فتحت الضلفة اليسرى، فوجدت صفوف القمصان النظيفة المكوية. رصت ما معها: الأبيض مع الأبيض، والملون مع الملون، ولاحظت عدد القمصان التي لم تعد تتعرف عليها. ثم ، دون أن تفكر، فتحت الضلفة اليمنى، وها هي البدل والسترات تتدلى ساكنة في أماكنها. ومعطف الشتاء المبطن بالفراء، الذي اشترياه معا في إحدى زياراته لذلك البلد البارد البعيد. كانت تدلله، وتقول: «من يجلس دافئا في فرائه؟» فيبتسم، ويرفع الياقة حول رقبته. مدت يدها ومررتها تتلمس الفراء. آه لو تدفن فيه وجهها، لو تتشمم رائحته مرة أخرى ـ مرت بيدها على ظهر المعطف فلامست شيئا معلقا وراءه: شيء مغلف بملاءة بيضاء. كشفت الملاءة فإذا هي تواجه فستان زفافها. فستان مستوحى من الأحلام: دانتيل أبيض مبطن بالساتان الرصاصي الفاتح ومطرز باللآلئ الصغيرة. بيد مرتجفة أعادت الغطاء عليه، وانحنت لتحكم الملاءة حول الذيل الطويل، فوقعت يدها على صندوق من الكرتون، جذبته. ودون أن تنظر فيه تعرف، تعرف ما بداخله. ترددت، ثم فتحت الغطاء. صرخت، وتراجعت إلى حائط الممر. طرحة زفافها، ترقد، وفوقها التاج الصغير المطرز، والكل حي يتنفس بالعتة السوداء. حملت الصندوق إلى المطبخ، ووضعته في الحوض، وبحثت عن الكبريت، وأشعلت النار. وقفت أمامه إلى أن احترق، ثم غسلت الحوض. غلبها الشعور بالغثيان، فأسرعت إلى الحمام. دائمًا الحمام .. فتحت الماء ونظفت فمها، ثم اتجهت إلى غرفة النوم وهي تحس بدوار. رقدت على السرير الكبير، حريصة ألا يلمس حذاؤها الأغطية الوردية. ظلت راقدة، والدنيا تدور من حولها، وأحست بالدموع تنساب من عينيها إلى السرير. هذا أيضًا مشهد مألوف: الرقاد هنا.. الغثيان .. البكاء .. الوعكات المتتابعة التي وصفوها بالهستيرية. «ماذا بك؟» كانوا يسألونها. «لماذا لا تهدئين؟ لماذا لا تستقرين؟» وإجابتها دائما: «لا أعرف» رقدت، وبكت، حتى غلبها النوم، وهي حريصة على ألا يمس حذاؤها السرير.

حين استيقظت رأت الجدران المغطاة بالورق المزهر، والستائر البيضاء العفيفة. لم تتساءل لحظة «أين أنا؟» فهي تعرف جيدا أين هي. لم تعرف فقط بأي زمان هي؟ ماذا حدث؟ تساءلت وهي على السرير. أين هو؟ ما هذا الحلم الذي حلمته؟ رفعت نفسها على مرفقيها، فرأت صورة منعكسة في مرآة طاولة التسريحة. لم تر فتاة بوجه مستدير، وشعر أسود، أملس، طويل. رأت امرأة ذات شعر متوسط الطول، مجعد نوعا، وفي جيدها عقد من اللؤلؤ. مرت لحظات، والعين في العين، في ألفة، وحزن، وارتياح. نزلت برفق من السرير، وأصلحت الفراش بعدها، وتركت الغرفة.

في غرفة الجلوس، اتجهت إلى الجهة اليسرى من المكتبة. تفحصت رفوف الأدب، وأخذت دواوين صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي. حملت الكتب، وحقيبة يدها، وخرجت من الشقة، بعد أن أطفأت الأنوار. ومن الخارج، أغلقت الباب، ثم أدخلت المفتاح في الثقب، وأدارته، بحزم، مرتين.

تحت أشعة الشمس الكاشفة، ركبت السيارة الحمراء الصغيرة. وضعت الكتب الخمسة على المقعد بجانبها، واتجهت إلى الجانب الغربي من الساحة. قادت السيارة برفق حول المطبات، حتى خرجت من الطريق الوعر، ووصلت إلى الدوار مرة ثانية، وهناك أسرعت.

أذكرك

إلى نهاد جاد

أفكر فيك. أفكر فيك كثيرًا، وأتذكر. أتذكر مثلًا مربيتك العجوز تدخل غرفتك، تمسك طرف طرحتها بأسنانها فتخفي نصف وجهها. تطل عليك من وراء غشاوة المياه البيضاء تكسو عينيها، فتراك مضببة مهزوزة. أتذكر زوجك يضع سماعة التليفون، وإشارة يدك الدقيقة تسكت الكلمات المتبرمة على شفتيه. كانت العجوز تتمتم بالتعاويذ.. تتحرك نحوك، ترسم بالمبخرة دوائر متقلصة تشي بآلام الروماتزم في ذراعها. ومن خلال النافذة، بدا ظلام ليل القاهرة شديد الدكنة، لو مددت إليه يدي للمست مخملا أسود.

الآن تنتشر رائحة بخور العنبر في هذه الحجرة كذلك. عيناي تتبعان الدخان الحلو ينسحب خلف التمرجية، وتترائين لي مرة أخرى جالسة في الفراش. تبدين رائعة. تلفين رأسك بعمامة سخية من الحرير الأخضر. من مكاني على الكنبة كنت أرقبك: ضوء المصباح خافت على الطاولة، وسريرك على منصة، يغطيه حرام كبير من الفراء الأبيض. داخل فستاني الخفيف، كانت حياة جديدة تدفئ جسدي . أما أنت، فوضعت شالًا من الصوف الأبيض حول كتفيك، ويداك تضمان الشال على صدرك. وبدت أناملك أطول وأرهف مما عرفتها، وإن كانت أظافرها لا تزال مطلية بالأحمر القاني الجريء.

رأيتك وقتها ملكة في زمن قديم. رأيتك المرأة والأم الأبدية. واليوم، وقد حطمت قلوعي في هذا البلد الغريب، أسأل نفسي كيف يمكن أن تراك هؤلاء النسوة اللاتي أجد نفسي بينهن! خمس من النساء، كل واحدة في سرير. يرتدين جلاليبًا رمادية أو بنية اللون، صُممت لكي يبدو الجسد داخلها كتلة واحدة، صماء. لفت رؤوسهن بإحكام في طُرح سوداء سميكة. وتركت فوق الرؤوس طيات جديدة من القماش الأسود، تنسدل على الوجوه في أي لحظة.

قميص نومي القطني الأبيض فضفاض ومقفول بالأزرار حتى الرقبة، أكمامه واسعة، لها أساور بكرانيش تغطي ظهر اليد، لكنه يبدو خفيفًا ومخجلًا إلى جوار الطبقات السميكة الغامقة التي يرتدينها. شعري مكشوف. أضمه إلى الخلف في ضفيرة فأشعر بحركة ذراعي تحرك نهدي داخل قميص النوم. ليس معي رباط أروض به شعري.

رأسك كان يغطيه الحرير الزمردي، يترك مساحة من الشعر الأسود تزين جبهتك. ومن تحت الحرير، تسللت خصلة دب فيها الشيب فالتفت على رقبتك. دخل ابنك، ذو الأعوام الخمسة عشر، وقطب عندما شم رائحة البخور. لوحت مربيتك العجوز بالمبخرة في أركان الحجرة، وضرب كلبك المستلقي عند نهاية سريرك بذيله وهو ينظر إليّ بعيون حزينة. قبل أن يغادر ابنك الحجرة صعد إلى المنصة ليقبلك. سريرك في عليائه المسرحي يليق بكليوباترا .. يليق بليال وصباحيات من العشق السلطاني .. ويليق أيضا

بمشهد الوداع.

أدفع بقدمي الحافيتين من تحت الملاءة وأدليهما من السرير. أظافر القدمين مهذبة، مطلية، استطعت مرة أخرى أن أنجزها بعد انحناءات والتواءات ومناورات حول بطني الضخم، تبدو الآن شارات عشر من العار. عندما تلمس قدمي الأرض ينحسر قميص النوم، ليكشف عن كاحلين متورمين. ينفتح باب العنبر، ويسمع سعال مؤدب منبه، ويدلف رجل إلى الداخل. تطير أربعة أزواج من الأيدي إلى أربعة رؤوس، وتنسدل أربعة أنقبة على أربعة وجوه، وتخرس كل الأصوات. أقف ثقيلة، وأمد يدي إلى الستائر، بينما يسير الرجل، وهو ينظر في الأرض، إلى السرير الخامس، ليجلس إلى جانب زوجته. المفروض ألا أتحرك .. ألا أتحرك على الإطلاق. ولكني أسير ببطء حول السرير، لأقفل الستائر المقلمة بالأخضر والأصفر: أشد أطرافها، وأضع الطرف فوق الطرف بعناية، حتى يكتمل انعزالي. أصعد بصعوبة إلى السرير مرة أخرى. أرقد على ظهري، وأشد الملاءة حتى ذقني. أشعر بسخونة الدموع تغشو مقلتي، فأتركها تنساب ، لتبرد على وجهي، وتنزلق جانبًا، فتصل إلى شعري. لا أريد أن أكون هنا.

رقت يدك إلى حد الشفافية. شبكة من العروق الزرقاء تظهر تحت البشرة. حاجباك مرسومان بدقة: جناحان يرتفعان أعلى عينيك بسوادهما العميق. عظام خديك (آه .. كم كنت أحسدك عظام خديك!) أضحت أشد بروزًا. أما فمك فبقي على حاله: متسعًا قويا. شفتك السفلى ممتلئة، تعضين علىها وأنت تلتفين بالشال، تحبكينه حولك أكثر. وقفت والدتك عند الباب، تنوء بثقل سنين العمر ولهفتها عليك، وأشعل زوجك سيجارة أخرى، وتصفحت أنت جريدة المساء.

أما أنا فجلست على الكنبة أتعجب كيف تستطيعين ـ ولكن، هل كان يمكنك أن تكوني غير ذلك؟

الممرضة الفلبينية تزيح طرفي الستارة، وتقول، وهي تقف مبتسمة بينهما:

«لا بد لك من بعض الهواء»

تخطو بخفة حول الفراش حتى تفتح الستائر تمامًا. زائر السرير الخامس قد خرج، والنساء يتحدثن الآن في أصوات منخفضة. ترفع الممرضة معصمي، وتنظر في ساعتها ثم تعيد يدي إلى السرير، وتهز الترمومتر. تقول بنغمة موسيقية صاعدة وهي تضع الترمومتر في فمي:

«لماذا تبكين؟ ستكونين بخير»

هل بكيت يا عزيزتي؟ لم أرك أبدًا تبكين. ومع ذلك أظن أني أسمع شهقات بكائك ـ شهقات تنتزع من الروح ـ في ظلام الليل، وأهل البيت قد آووا إلى النوم.

تقوم إحدى النساء من سريرها، وتمشي إلى الحوض الموجود بجانب ستارتي المفتوحة. تسعل، وتبصق، ثم تفتح الصنبور لتغسل الحوض. تعبر الخطوتين إلى سريري، وتقف.. وتنظر إليّ:

«لا تبكي»

أومئ لها برأسي. ماذا يعنيني إن كانت تبصق في الحوض؟ هل كانت تبصق عليّ؟!

«ليش البكا؟»

أهز رأسي في ضعف. لو فتحت شفتي أحاول الكلام فسوف أعوي.

«ما تتكلمي عربي؟»

«طبعا باتكلم»

يخرج صوتي متحشرجا، مرتعشا. لا أستطيع أن أتعرف على سنها. بردائها الذي لا شكل له، ورأسها الملفوف، يمكن أن تكون في أي سن بين الثامنة عشرة والخامسة والأربعين.

«حامل؟»

أومئ مرة أخرى.

«إيش فيك؟»

أهمس: «الضغط مرتفع»

«كل شيء بأمر الله»

«صحيح»

«أرفع لك السرير؟ شكلك ما مرتاح»

أهز رأسي. لا أريد أن أرتاح. ولكنها تعالج السرير بحيث يرتفع رأسي وكتفاي قليلًا. تحاول أن تكون لطيفة معي. هو حب

استطلاع، ومعه طيبة أيضًا. ولكني لا أريد أن أرتاح. لا أريد أي شيء إلا أن أكون لست هنا.

أريد أن أكون مع ابنتي. تسألني في التليفون:

«ليه لازم يفرقونا كده؟»

إنها في الخامسة وتختار كلماتها بعناية. أريد أن أكون معها، وهي تلعب في الماء، في حوض السباحة: ذراعاي تخلقان دوائر في الماء، تتكسرفيها أشعة الشمس إلى أشكال تتغير، وتتبدل، بينما هي تسبح بعيدًا عني، حتى حافة الحوض، ثم تعود .. وتعود. أريد أن أمسك بقدمها وهي نائمة: تستلقي على ظهرها، وساقاها وذراعاها ممدودتان. أريد أن أرقب عينيها، في الضوء الخافت، تتحركان تحت جفنيها المائلين إلى البنفسجي الفاتح ـ أرقب عينيها، وأحاول أن أرى ما تحلم به.

وقفت في النافذة أرقب سائقك والبواب العجوز، يقفان معا في الحديقة لصلاة المغرب. شعرت بدعواتهما لك. في الشارع، على الرصيف المقابل، كان شاب وفتاة يتسكعان في جو الربيع اللطيف، ذراعاهما متشابكان، وينظران في فترينة محل تلمع بأحذية مدندشة. ومن ورائهما، لمحت أضواء سينما روكسي. اقترب زوجك من السرير، ودقق في زجاجة المحلول. من حجرة الجلوس، أتت همهمة محادثة، أنهتها رنة التليفون. ثم جاءت بعدها رنات جديدة عندما رفع أحدهم السماعة، ليطلب رقمًا آخر.

عادت الممرضة الفلبينية، ومعها شاب يرتدي معطفًا أبيض. تراجعت المرأة الواقفة بجانبي إلى سريرها. يحدثني الطبيب، وسماعته تتأرجح في وجهي:

«يجب ألا تبكي يا سيدتي. البكاء مضر لك»

يتكلم بأدب، وبلهجة سورية. عيناه تلمعان بشدة. لونهما عسلي فاتح. فمي يتشكل في ابتسامة مهذبة، ويدي على السرير تتحرك في إشارة ضعيفة، لتقول له ألا يعير الأمر اهتماما. يردد: «اطرحي عنك الخوف فكل شيء بأمر الله»

أومئ برأسي وأغلق عيني برهة. أجدني عاجزة عن الكلام. يقف ناظرًا إليّ. يبتسم وعيناه تشعان لهبًا. أتمنى لو كنت أستطيع أن أطمئنه. يا سيدي لست خائفة. أنا حزينة، موحوشة. حزينة، وأريد ابنتي. أحرك رأسي مرة أخرى.

جارتي في المجمع السكني قالت:

«يمكن أن تفاجئك أزمة في أي وقت. وإن لم تكوني وقتها في المستشفى فستموتين»

قلت: «عندما أحس ببوادر الأزمة سأجري إليك»

«لن تستطيعي الجري»

«سأمشي إذن»

«المسألة ليست هزار. يجب أن تدخلي المستشفى»

«كيف أذهب إلى المستشفى والامتحانات هذا الأسبوع ولا بد أن أكون مع طالباتي؟»

«ألا تفهمين؟ أقول لك ستموتين. ستموتين موتا»

في النهاية، أحضرتني للكشف، وعندما استبقوني، أخذت ابنتي معها إلى منزلها. هي ترعاها، وتتحدثان معي في التليفون مرتين كل يوم. وابنتي، في الحقيقة، هي السبب في أنني أفضل أن أبقى على قيد الحياة. ابنتي، وذلك الطفل الآخر، غير المحتفى به، الموجود داخلي، والذي يتشبث بالحياة بكل قوته.

عندما غادر زوجك الحجرة مع الطبيب، صعدت السلمتين إلى سريرك. أخذت قربة الماء الساخن التي رقدت فوق الفراء وقلت:

«مش أحسن تكون تحت الغطاء؟»

رفعت اللحاف والبطانية والملاءة، ودسست القربة بجانبك، ثم أحكمت الغطاء حولك. وضعت يدي على كتفك وقلت:

«هل أُدلك لك ظهرك؟»

تنهدت وقلت:

«يا ريت»

جلست خلفك، وعندما استرخيت على جانبك، لمس ظهرك بطني المتكورة، وأحسست بالطفل يركل داخلي. لا أعرف هل شعرت أنت أيضًا به أم لا؟! دلكت ظهرك بيدي اليمنى، بروحي كلها. مرفقي الأيسر يستند على وسادتك. ويدي اليسرى على كتفك. شعرت بائتناس وراحة. وإن كان عليّ لدلكت ظهرك طول الليل.

يعود الطبيب ذو العينين المتوهجتين. يأتي مسرعا، يحمل حقنة ويقول:

«بكاؤك يتسبب في ارتفاع الضغط. سأعطيك بعض الفاليوم. من فضلك ارفعي الكم»

بيدي اليمني أرفع الكم الأيسر. الممرضة الفلبينية تقول بإنجليزيتها المتكسرة:

«أنت تريد أنا أفعل؟»

لا يرد عليها، ويغرس الإبرة في ذراعي. الدواء يؤلم عند دخوله في العضل. يسحب الطبيب الإبرة، وتدلك الممرضة مكانها بقطعة شاش عليها مطهر. يقول وهو يبتسم:

«ستنامين الآن»

* * *

جسدي مفكك. كل جزء فيه أثقل من أن أحمله. يداي تبدوان كخُفَّي حيوان بليد. أصابعي ـ الخالية الآن من الخواتم ـ تصلبت، حتى أنني لأعجب كيف كنت يوما أحركها دون عناء. معصمي ـ الذي تعودت أن أرقب فيه ظل النبضات، تدق تحت البشرة الشفافة ـ أراه الآن جلدًا معتمًا سميكًا. أسند ذراعي على حاجز السرير المعدني، فأشعر براحة مؤقتة. الذراع الأيسر يؤلمني، وإذا حركته، فعليَّ أن أحترس وإلا التفت أنابيب المحلول، وتعقدت، وانسدت. ثدياي المتضخمان يشدان جلد صدري ويعذباني بثقلهما. أضطر لاحتوائهما في سوتيان ضيق، مرفوع، يحفر في ضلوعي، ويضغط على رئتي. كل بضع دقائق، آتي بيدي اليمنى، لأمسك بأستك السوتيان، أبعده عن صدري، وأتنفس قليلا. وعندما أعيد ذراعي، وأعلقه على حاجز السرير، يسري في كتفي، وصدري، شعور بالارتياح، للتخلص من مجهود رفعه. ترى ماذا يكون انطباعهم، عندما يدخلون، ويجدوني على هذا الحال: جسد معذب، ذراعاه ممدودة إلى الجانبين؟ هل تتبادر إلى ذهنهم صورة الصلب؟ أم أن الصور المسيحية ـ حتى هذه الصورة الأساسية ـ ليس لها مكان في عالمهم بالمرة. نحن لا نفكر بالصورة: ديننا دين الكلمة لا الصورة. أغمض عيني. «لا تقلقي» يقولون لي: «لا تقلقي.. فالقلق يضرك»

أنا بمفردي، والحجرة ليست سيئة. ليس فيها، على الأقل ألوان من البرتقالي والبني. الحوائط، وأغطية الفراش، بيضاء. بجوار سريري تليفون رمادي، للاستقبال فقط. أمي وأبي وبقية الأسرة يكلمونني من القاهرة، وزوجي يكلمني من لندن. هناك كرسي من البلاستك الرمادي، وتلفزيون على رف في ركن الغرفة. بين التلفزيون والشباك لافتة تعلن: «لايجب تحت أي ظرف أن تكوني بمفردك مع الطبيب. إذا حاول أي طبيب أن يفحصك استدعي الممرضة فورًا» أرى ذلك مضحكًا، ورغم تعبي، أنقله في مفكرتي. أنا وحدي الآن ولا يراني أحد، فأستطيع أن أتعلق بما بقي مني. بجانب اللافتة، ثُبتت في الحائط صورة فراشة كبيرة، وضيئة،

أحضرتها لي ابنتي في زيارتها الأولى. أوراق الامتحانات بجانبي، أحاول تصحيحها كلما استطعت.

في الصباح ترفع الممرضات المحلول عني، فأنزل، بمنتهى الحرص، من السرير. أمشي ببطء إلى الحمام. أتبول، بكل ما أستطيع من دقة، في الوعاء الموجود بانتظاري، وأغطيه، وأعيده إلى الرف. ومع أن جسدي لم يعد الجسد الذي أعرفه، إلا أني أغسله بعناية، وأرشه بالكولونيا، وأضع الكريم المرطب على الأجزاء التي أستطيع الوصول إليها منه. أمشط شعري، وأفعل ما أستطيع بوجهي: أرسم خطا بالقلم الأسود على الجفنين المنتفخين، وأضع بعض الكحل، وكريم تلميع الشفاه، وأرتدي، فوق قميص النوم، جاكيت خفيف، له ياقة من الدانتيل. أعود إلى الغرفة، وتساعدني الممرضة في اعتلاء السرير المرتب. تقول: لا ينبغي أن أقوم من الفراش، والمفروض أن أستعمل قصرية السرير، وأن أتركها تنظف جسمي بفوطة مبللة. أبتسم ابتسامة مهذبة، ولا أرد. إنها نظيفة جدًّا، وأنيقة في مريلتها التيل البيضاء. ملامحها دقيقة، وشعرها الأسود اللامع معقوص في ذيل حصان. تقيس الضغط، والحرارة، والنبض، وتدونها، وتعيد تثبيت زجاجة المحلول. أرقد مرة أخرى، ويسري في جسدي شعور بالإنهاك والغثيان، ولكني مستعدة ـ بالشفاه اللامعة، والياقة الدانتيل، والمفكرة، وأوراق الامتحانات ـ مستعدة للمرور الصباحي للأطباء، يندفعون داخل الحجرة، ويأخذون موضعهم عند نهاية السرير. يقف الاستشاري في وسط الغرفة، تبدو عليه العظمة، في ثوبه الأبيض، وعباءته السوداء المذهبة. تسلمه الممرضة دفتر الملاحظات، وتتراجع. ينظر في الدفتر. ومن خلفه، ينظر فيه أيضا النائب الهندي، ذو الشعرالأملس والوجه المنغلق تمامًا. وهناك طبيب سوداني: أطلق عليه في ذهني «عطيل»، على وجهه أسى مستديم، وبساقه عرج، ويمسك بعصا من الأبنوس. ثلاث طبيبات من أهل البلد يقفن على مسافة مهذبة. كل ما أراه منهن، عيونهن السوداء، من خلال فتحة الحجاب الأسود الضيقة. عندما يذهب الجميع، تسألني الممرضة الفلبينية إن كان ذراعي يؤلمني؟ تهمس لي بأن الطبيب أخطأ إذ أعطاني الفاليوم في ذراعي. تربت على فخذي وهي تقول:

«كان يجب أن يعطيك الحقنة هنا، ولكنه خاف أن يطلب ذلك منك. عضلة الذراع صغيرة، لا تتحمل»

كان ظهرك نحيلًا نحيلًا: لمست فقراته تحت قميص نومك القطني. دلكت عمودك الفقري ببطء، وضغطت على الكتف، والرقبة. رأيتني أدلكك كطفل صغير، وأقبل رأسك، وأبكي عليك. ولكني جلست وراءك، أدلك ظهرك، وأفكر في سفري في اليوم التالي. أألقاك عندما أعود في الصيف؟ كنت أريد أن أحكي لك ـ وكان عندي أسئلة أيضا. قلت:

«فاكره لما اتغدينا في الميريديان؟» وكان ذلك منذ سبع سنوات.

في الساعة الخامسة رفعت الممرضة المحاليل وقالت:

«يجب ألا تنزلي»

قلت:

«ولكنكم لا تسمحون بصعود الأطفال إلى هنا»

نزلت من السرير، ولبست العباءة السوداء، ولففت رأسي في الطرحة السوداء، ومشيت ببطء إلى خارج الغرفة.

ابنتي تجلس على حجري، في ركن السيدات، في قاعة الانتظار الواسعة، في الدور الأرضي. تربت على وجهي المكشوف، فأدفن فمي في راحة يدها الصغيرة، البضة. تنثر قبلاتها الندية على عيني، وخدي، وأنفي، وفمي. من تحت أحجبتهن، تحملق فينا النساء الجالسات في صمت.

في اليوم الرابع، يُفتح باب حجرتي، وتدخل امرأة نحيلة في ثوب رمادي طويل ومتسع ، والنقاب الأسود المعتاد يغطي رأسها ووجهها. تحمل في يدها طبقًا مغطى، وتنظر حولها لتتأكد أنني في الحجرة بمفردي:

«ما في رجال؟»

«ما في»

ترفع النقاب وتلقيه خلف رأسها:

«السلام عليكم»

«وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته»

تضع الطبق على الكومودينو، بجانب التليفون، وتستقر في الكرسي الرمادي. وجهها شاب، وإن كان لا يتميز بجمال، وبالطبع لا تستعمل المساحيق.

«أحضرت لك يا أختي شيئًا يقيم أودك. طعام المستشفى لا مذاق له»

«كتر خيرك. لم يكن هناك داع لتتعبي نفسك»

«لا نرى أحدًا يزورك؟»

«ليس لي أهل هنا»

تصعب عليّ نفسي، وأشعر بالدموع تتجمع في عيني، فأغمضهما. أتغلب على الدموع. هذا أقل ما أستطيع أن أفعله.

«يقولون إنك متزوجة من إنجليزي؟»

«نعم»

«كيف تتزوجين إنجليزيًّا؟»

«قسمتي ونصيبي»

«ولكنك مسلمة. كيف تتزوجين إنجليزيًّا؟»

«لقد اعتنق ديننا»

«وتعيشين هناك؟»

«نعم»

«كيف تعيشين هناك؟ إنهم يعيشون كالحيوانات»

«هم ناس مثلنا»

«إنهم يعيشون كالحيوانات هناك»

«هم يعيشون مثلنا: فيهم الطيب وفيهم الوحش»

«إنهم يجامعون بعضهم بعضًا في الشوارع»

«نعم؟!»

«هناك. يجامعون بعضهم بعضًا في الشوارع»

«لقد عشت هناك طويلًا ولم أر أحدًا يفعل هذا»

«أنا رأيت»

«أين؟»

«في الأفلام. زوجي يحضر أفلام الفيديو ورأيتهم: يذهب الرجال إلى الحرمة في الشارع ويرفع ملابسها ويجامعها»

«هذه الأفلام لا تصور الحقيقة. إنها أفلام للإثارة»

تنهض وتقول:

«لازم أروح. كيفه زوجك؟ طيب معك؟»

«الحمد لله»

«زوجي مدرس»

«ما شاء الله»

ترخي النقاب على وجهها وتتجه نحو الباب:

«السلام عليكم»

«وعليكم السلام، وشكرًا على هديتك الكريمة»

كنا قد هربنا من حرارة يوليو إلى كافتيريا الميريديان المكيفة. شربنا عصير الجوافة والنبيذ الأبيض المثلج وأكلنا سلاطة طماطم مع الجبن الأبيض والخبز البلدي المحمص. مسرحيتك الأولى كان نجاحها مدويًا، وكان الناس في المطعم يلتفتون لينظروا إليك. كنا نرقب الشمس تلمع على النيل الفضي الشاسع، ونمص أوراق الخرشوف، لنصل إلى قلبه الأخضر الفاتح. حكيت لك كيف أحببته، ثم رويت لك كيف اعتنى بي كالأم عندما أصبت بالنزلة الشعبية:

«تصوري أنه قرأ لي قصة خرافية ساذجة ليسليني»

«تزوجيه»

«وكيف أعيش معه ولا أتكلم لغتي؟ وكيف أحيا هناك؟ والبرد؟»

كان ردك:

«مصر موجودة لك على طول»

في اليوم السادس، حضرت رئيسة التمريض الإسكتلندية، وقاست النبض، والضغط. قالت إني في حاجة إلى المورفين، ولا بد أن أتوقف تمامًا عن النزول إلى الدور الأرضي.

«ولكنكم لا تسمحون للأطفال بالدخول إلى هنا ولا بد أن أرى ابنتي»

قالت إن جسمي أصبح كغرفة الضغط، وإن أي حركة تزيد من الضغط على طفلي.

«وماذا عن الضغط العصبي؟ وماذا عن التعاسة؟ وعن الإحساس بالوحدة؟ وحاجتي إلى ابنتي وحاجتها لي؟»

قالت: «هؤلاء الناس حيوانات .. حيوانات لايفهمون شيئًا. يعتقدون أنهم بالقواعد والقيود أصبحوا متحضرين. لا تضايقي نفسك يا صغيرتي. فكري فقط في طفلك، وكوني فتاة مطيعة، تخرجين من هنا سريعًا»

طالباتي اتصلن بي، وأرسلن لي الورود، والفاكهة. كل واحدة عرضت أن تأخذ طفلتي إلى منزلها ، لتسبح وتلعب مع أولادها. ولكن أحدا لا يستطيع أن يحضرها إلى هنا.

زوجي يحدثني بالهاتف كل يوم.

أصحح أوراق الامتحان. بعد كل سؤال، لا بد أن أتوقف لأرفع أستك السوتيان وأتنفس.

تركتك في فراشك، وأمام بوابة الحديقة، رفعت عيني إلى بيتك: بيت أبيك، وبيت أبيه من قبله: وكان متوهجًا بالأنوار. هناك في الشارع ودعته ـ زوجك، صديقي القديم، ربتنا بعضنا على أكتاف بعض، ولم نقل شيئا، وانتحى البواب جانبا، يمسح وجهه بكم جلابيته الصعيدية الواسع.

أمي تتصل بالتليفون وتقول إنك سافرت إلى أمريكا وعدت، ولكن.. لا .. ليس هناك تحسن. هل تفكرين في الموت؟ أكيد. أكيد تعرفين أنك تحتضرين. استأصلوا نصف المعدة، ويغذونك عن طريق إبرة مغروسة بيدك . إخوتك يطوفون بمستودعات الأدوية، وأطباؤك يتناوبون الورديات، وأبناؤك يروحون ويجيئون، ولا أحد ينطق باسم مرضك المخيف. كل الكلام يدور حول القرحة،

والمضاعفات غير الواضحة، والعملية الاستكشافية ـ ولا يتطرق أبدًا إلى إزالة كتل من المعدة وأمتار من الأمعاء، لا يسمي أبدًا ذلك المرض الذي يناور كالزئبق، فيحتل مواقع جديدة كل يوم. يقول زوجك إنك لا تعرفين. وهو يرى أن ذلك أفضل، لأنك لن تتحملي الحقيقة. هل هذا آخر معروف تقدمينه له؟ أن تسمحي له أن يصدق أنك لا تعرفين؟ تلتزمين بقواعده حتى آخر لحظة، فترحمينه من النهايات الدرامية، وخطب الوداع البليغة؟

ثلاثة أيام، وأمي لا تتصل. وفي اليوم العاشر لي في هذه الحجرة، تطلبني. أسألها عنك ، فترجوني أن أهون على نفسي ـ أن أفكر في ضغطي العالي، والطفل في أحشائي، وابنتي. كل ما يمكن عمله قد عمل، والباقي كان قضاء مكتوبا.

تدخل الممرضة، ومعها الطبيب السوداني. ينحني، ويدس يده تحت الغطاء، ويخاطبني في أسى:

«لماذا ترفعين ضغطك هكذا؟ سأحاول ألا أؤلمك .. نعم .. عنق الرحم يتسع. نريد أن نتعجل الولادة، لأن ضغطك أعلى كثيرًا من اللازم. والسبب هو قلقك، وحزنك المستمر. لم كل هذا الحزن يا سيدتي؟»

«هل الطفل بخير يا دكتور؟»

«أنت في الشهر الثامن. إن شاء الله سيكون الطفل بخير»

يمسح عنق الرحم ثلاث مرات في حركة دائرية عنيفة، وتسرع الممرضة لتض-ع صندوقها الأسود الصغير فوق بطني، لتسترق السمع إلى الجنين.

في ظهر يدك، رأيت الإبرة تنغرس في الوريد الأزرق. في يدي تلاشت التفاصيل كلها، أنبوبة المحلول تختفي تحت تشابكات من الشريط اللاصق المدمم. أرقد، وأرصد تحركات طفلي: لكمة خطافية لكبدي، ثم رفساته الصغيرة المتلاحقة قبل أن يستدير لينام في تكور عنيف يلوي جسده كله إلى جانب واحد. لا يتحرك، فأتخيله يلهث، بحثا عن الهواء، بينما الحبل الذي يربطنا، يفشل في مده بالأوكسجين الذي يحتاجه .. لا .. بينما أفشل أنا في مده بالأوكسجين الذي يحتاجه. أرفع ذراعي، بحرص، من على حاجز السرير، وأدلك جانب بطني برفق، أحايله، ليستيقظ، ويركلني. أحاول ألا أفكر فيك، وأن أبتعد بأفكاري إلى أشياء أخرى، فأحس بالدموع على وجهي بينما تتابع في ذهني صور لا أستطيع تحملها: منذ خمس سنوات، جلست في مطعم البابريكا مع زوجي ـ أيام كان يحبني ـ أمسك بيدي عبر الطاولة ورفعها ليقبلها، وفي السيارة، في صحراء المعادي، تزود بالخير والأمل من بين ساقي. أريد أن أعود ـ أريد أن أعود إلى سن الخامس-ة ألعب في الشمس على سجادة جدتي. أريد عيد ميلادي التاسع عشر، وحولي الأصدقاء، وأنت ـ العروس الجديدة ـ تختالين في الحفل، وعلى ذراعك أزهار الزنبق والسوسن الأزرق. أريد أن أكون في بلدي.

ومن النافذة نظرت، فرأيت امرأة تقف وسط السيارات في الشمس المحرقة: عباءتها السوداء تنتفخ حولها، وهي تتشبث بها وتنحني للأمام لتتقي الرياح المتربة.

في سواد الليل دق جرس التليفون. أمد يدي في الظلام، وأحاول أن أهدئ قلبي، فكل دقة جافلة تزيد من الضغط على طفلي. ماذا يأتي به الهاتف الآن؟

صوت رجل يهمس باسمي. يقول إنه معجب بي .. إنه أحد أطبائي، وإنه يتمنى لي الخير. لو تكلم العربية لعرفته من لهجته، ولكنه يكلمني بالإنجليزية ويقول:

«أعرف أنك لا تستطيعين مغادرة الفراش. هل تريديني معك؟ صدرك كبير جدًا ويؤلمك، أليس كذلك؟ هل أمصه لك ليخف الألم؟»

أقفل التليفون فيطلب مرة أخرى .. وأخرى. أرفع السماعة .. ولكن ماذا لو حدث شيء في القاهرة؟ ماذا لو احتاجتني ابنتي؟ أعيد السماعة إلى موضعها.

*** * ***

عندما حان الوقت حدث كل شيء فجأة كما حذرتني جارتي ـ منقذتي. كيف أفاجأ هكذا وأنا المستعدة، المنتظرة، الحذرة؟

في اليوم الحادي عشر، سألتني ابنتي في التليفون:

«الفراشة اللي اديتها لك ـ لسه بتحبيها؟»

«طبعًا يا حبيبتي»

«وحتفضل عاجباكي على طول؟»

« ستعجبني على طول»

«وعمرك ما حتكرهيها أبدًا ؟»

«كيف أكرهها يا بنيتي؟ سأحبها إلى الأبد»

استدرت أعيد السماع-ة، وأطمئن على الأنابيب فشعرت باندفاع مكتوم، أحسسته كما لو كان بحرًا بعيدا يضرب في الصخر، وحين

وقعت السماعة من يدي كانت الأمواج المتلاحقة تضربني وتقلبني وتدفعني إلى القاع.

أما ما تلى ذلك، فتبقى في ذاكرتي منه صور وأحاسيس مبتورة. أسناني تصطك بشدة ، ويتخبط في رأسي صدى رنينها . فوطة صغيرة تحشر في فمي ثم تخرج بسرعة عندما بدأ القيء. معدتي فارغة ولكن شريط من العصارة الصفراء يخرج من حلقي في دفعات مرة الطعم. البلل يندفع مني لا أعرف إن كان ماءً أم دمًا. الخبطات المنتظمة خلف عيني ترج جسدي. أصوات تكلمني، وأياد كثيرة تمسك بي، وتجفف جبهتي، وتمسح وجهي، وتحملني، ثم حجرة ذات ضوء أبيض باهر مؤلم، وعطيل والسوري ذو العيون النارية وأشخاص آخرون مشغولون بي وحولي، وطحن عنيف يدهك جسدي من الوسط إلى الفخذين، وإبر تغرس في ذراعي وظهري وصوت في أذني يقول:

«زوجك على التليفون. يقول لك إنه معك»

بين ساقي، يقف مصارع ثيران يرتدي أفرول وكمامة وغطاء رأس، والضوء الأبيض الباهر يحرق طريقه إليّ خلال الألم والضجيج، حتى يأتي ملاك في نقاب أسود يخفضه، ويبعده عن عيني، وينحني فوقي. ولا بد أني قلت شيئًا لأني سمعت الملاك يجيب:

«تشجعي يا أختي. فلن أتركك»

أمسكت بيدي، وبكاحل ساقي الممدودة، وفي كل مرة كنت أغرق في ذلك المد المخيف كنت أعود فأطفو لأسمع صوتها الهامس المطمئن يمسح على روحي آيات قرآنية لا تنتهي.

طفلي الشجاع، كافح ببسالة ليخرج إلى الحياة. أخذوه إلى حضانة كهربائية لم أستطع منافسة دفئها وصمتها وسكونها، وتعبوا معي كثيرًا ثلاث ليال و ثلاثة أيام. وأخيرًا، عندما أعادوني إلى حجرتي ذات الفراشة الملونة، سلموني لفافة دافئة ناعمة. احتضنتها، وفككت اللفائف المزهرة، فرأيت الجسم الأسمر الدافئ الحي، والحبل السري المقصوص، والرأس ذات الشعرالخفيف الناعم، ورأيت رموشه السوداء الطويلة، وأصابعه المثنية، وأظافره المنمنمة، ورأيت اسمي منقوشًا بالقلم على سوار من البلاستك حول معصمه.

ابنتي على التليفون تقول:

«بكره حاجي آخدك»

«أعرف. لا أطيق الانتظار»

«خلصتي تصحيح الامتحانات؟»

«نعم»

«طيب نسافر بقى علشان بابا يشوف البيبي الجديد»

«نعم. نعم يا حبيبتي»

في الميريديان منذ كل تلك السنوات، والنيل يلمع خلفك، قلت لك:

«أنت متزوجة منذ تسع سنوات. هل نستطيع أن نثق في العاطفة؟ في الحكايات الرومانسية؟ هل من الحكمة أن نطمئن إلى الحب؟»

مرت سحابة خفيفة عبر وجهك، ثم أجبت:

«الأمور تتغير إلى حد ما .. نعم .. بالطبع تتغير.. ولكني الآن أعتقد أن التعاطف .. نعم .. التعاطف والحنان والمودة. هذه الأحاسيس تبقى.. من الممكن أن تبقى .. بل ربما كانت هذه الأحاسيس هي الجزء الباقي من الحب. زوجي ودود حنون، ومن كلامك يبدو أن رجلك أيضًا كذلك؟»

كان عندك كل شيء تمنيته: الثقة، عظام الخد العالية، مسرحية ناجحة، وزيجة سعيدة ـ أو على الأقل سعيدة نسبيا. أذكرك في ليلة الجمعة، وباب منزلك المضاء مفتوح على الحديقة، وباب الحديقة مفتوح على الشارع. تتحركين بين ضيوفك، وزوجك، وأبنائك، وأهلك، وخدمك. تتكلمين، وتضايفين، وتعدين المشروبات والأطعمة، وأراك تنسجين بخفة خيوطًا دقيقة تربط حياة كل هؤلاء معا. يا صديقتي الحبيبة .. كان كل شيء يبدو سهلًا في يدك ..

عن المجموعة

«زينة الحياة» (١٩٩٤) ظهرت بالإنجليزية في مجلة جرانتا، ثم في مجموعة ساندبايبر. ترجمها إلى العربية فاطمة موسى وصبحي الحديدي (ظهرت تحت اسم «زمار الرمل» في مجلة الكاتبة ومجلة نصف الدنيا).

«ميلودي» (١٩٨٨) ظهرت بالإنجليزية في مجلة لندن ريفيو أوف بوكس، ثم في مجموعة ساندبايبر. ترجمها إلى العربية أهداف سويف وأسامة فرحات.

«شي ميلو» (١٩٨٦) ظهرت بالإنجليزية في مجلة لندن ريفيو أوف بوكس، ثم في مجموعة ساندبايبر. ترجمها إلى العربية أهداف سويف وأسامة فرحات. ظهرت بالفرنسية في الأهرام إبدو.

«تحت التمرين» (١٩٨١) ظهرت بالإنجليزية في مجموعة عائشة. ترجمها إلى العربية أهداف سويف ومحمد الجندي.

«السخان» (١٩٨٠) ظهرت بالإنجليزية في مجلة لندن ريفيو أوف بوكس، ثم في مجموعة ساندبايبر. ترجمها إلى العربية أهداف سويف ومحمد الجندي. ظهرت في مجلة الهلال.

«المولد» (١٩٨١) ظهرت بالإنجليزية في مجموعة عائشة. ترجمها إلى العربية أهداف سويف ومحمد الجندي.

«عودة» (١٩٨٠) ظهرت بالإنجليزية في مجموعة عائشة. ترجمها إلى العربية أهداف سويف وفاطمة الحسين.

«أذكرك» (١٩٩٥) ظهرت بالإنجليزية في مجموعة ساندبايبر. ترجمها إلى العربية أهداف سويف وهدى شكري عياد. ظهرت في مجلة صباح الخير.

Table of Contents

إهداء
زينة الحياة
ميلودي
شي ميلو
تحت التمرين
السخان
المولد
عــودة
أذكرك
عن المجموعة